علم المعاني

في ضوء كلام العرب والنظم القرآني

الفرقة الثالثة/ كلية التربية/ لغة عربية

أ.م.د. حمد الله عبد الحكيم محمد
أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد
كلية الآداب- قسم اللغة العربية وآدابها

• بيانات الكتاب

الكلية: كلية التربية/ اللغة العربية وآدابها.

الفرقة: الثالثة.

المقرر: علم المعاني

التخصص: قسم اللغة العربية وآدابها.

عدد الصفحات: مائة وست وتسعون صفحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة النحل: آية ٤٤)

مقدمة

تهدف البلاغة إلى حسن البيان وأن يقع الكلام في نفس السامع كموقعه في نفس متكلمه، ولذا تهدف إلى تيسير الخبر على السامع عن طريق مراعاة جميع أحواله لا أقول الذهنية فحسب بل النفسية والروحية والمقامية وإن شئت فقل المكانية بمعنى مراعاة مكان إلقاء الخبر وزمانه بالإضافة إلى الأحوال الأخرى؛ لأن في مراعاة هذه الأمور راحة للسامع وراحة أيضا للمتكلم؛ فقبول الخبر كما يستدعي هذه الأمور فبالأولى يحتاج إلقاؤه إلى حال معد وموافقة لما يبغي المتكلم إيصاله.

ولا شك أن البلاغة فرع من علوم العربية التي تميزت بمحاولة إيجاد تكوين تركيب معين له دلالة مخصوصة يسهم في إنجاح الموقف الذي هو شركة بين المتكلم والسامع؛ فالكلام العادي الذي لا يبغي المتكلم من ورائه تحقيق هدف معين، أو اختيار ألفاظ معينة لمناسبتها هذا الحال دون غيره لا يعد مراعيا لأبسط قواعد هذا العلم فما أعنيه ذلك الربط بين اختيار الكلمات المناسبة عن هذه المواقف وتفضيلها على سواها، وقد أشار عبد القاهر كثيرا إلى موضوع الاختيار وأسماه التخير، وأرى أن البلاغة ينصب جل قيمتها على الاختيار، فاختيار كلمة دون أخرى مرادفة لها عند الشاعر أو الأديب وترك غيرها عن عمد يجعل الناقد يبحث وراء هذا الاختيار وما تميز به عن غيره، رغم أن معنى الكلمتين واحد، وهو ما يأخذنا إلى الإشارة إلى قيمة عظيمة في هذا الفن بل في اللغة العربية عامة، وهي تلك المزية التي تجعل لكل لفظ خصائصه ودلالاته.

ويصدق القول بالاختيار على القرآن الكريم ذلك النظم المعجز المتحدي لكل بلاغة وكل بيان، فلا تعلوه بلاغة ولا يصل إليه كلام مهما كان، ففيه تظهر بلاغة اختيار لفظ دون لفظ، ومعنى دون سواه، والسر في ذلك هو مطابقة هذا اللفظ لسياق الحال، وسياق الآية، وسياق السورة، بل إن شئت–وجاز التعبير– فقل لسياق القرآن كله، كما يراعي عند اختيار لفظه تركيب حروفه شدة ورخاوة، وجهرا وهمسا، ونبرا وتنغيما، كما ينظر إلى مراعاتها لما يجاورها فيختار ما يوافق جاراتها، وما يوافق جرس الكلام علوا وانخفاضا، ويراعي إلى جانب ذلك كله ذلك الغرض الذي قدم من أجله هذا اللفظ على غيره.

وهو ما يجعلنا ننتقل إلى مراعاة أخرى يراعيها الكلام البليغ تنصب على الاهتمام بالتركيب، فلولا اللفظ إلى جوار اللفظ ما كان التركيب، ولولا التركيب ما كان المعنى، فاختيار تركيب دون تركيب يأتي لسبب قوي هو السر وراء تقديم هذا على ذلك، فاختيار أسلوب القصر، أو التقديم والتأخير، أو حذف شيء من التركيب أو ذكره، أو اختيار الإيجاز على الإطناب أو العكس يعد إشارة قوية إلى أثر ذلك كله على مراعاة حال السامع، وقد علا النظم القرآني على كل بيان بكثير من الميزات؛ منها مراعاة كلامه ومناسبته لكل مقام ومكان وزمان.

لذلك سأحاول في هذا الكتاب تسليط الضوء على علم من علوم البلاغة هو علم المعاني فإن هذا العلم–ينظر في استعمال هذا اللفظ دون غيره وهذا التركيب دون سواه، ويركز على قيمة الرتبة المحفوظة ودورها إذا جاءت في تركيب معين وسيقت لغرض معين وكان القصد إلى استعمالها، وينظر أيضا في الرتبة غير المحفوظة ليشرح دورها في إثراء المعنى، والعدول عن هذا

التركيب إلى سواه، وعلاقة ذلك بالمعنى، فيحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريد المتكلم إيصاله إلى السامع.

والله ولي التوفيق.

الفصاحة والبلاغة

أولا: الفصاحة:

*فصاحة الكلمة.

*فصاحة الكلام.

ثانيا: البلاغة.

الفصاحة

الفصاحة–في اللغة–: البيان. فصُح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فُصحاء وفِصاح وفُصْح، وامرأة فصيحة من نسوة فِصاح وفَصائح. ورجل فصيح وكلام فصيح، أي بليغ، ولسان فصيح: طَلْق.

وأفْصح يُفصِح إفصاحاً: أبان وأوضح، وفَصُح الأعجمي فَصاحة: تكلم بالعربية وفُهم عنه، وتفَصَّح: تكلَّف الفصاحة... والفصيح في كلام العامة: المُعَرَّب. والفصيح في اللغة: المنطلق اللسان في القول، الذي يعرف جيد الكلام من رديئه؛ وبهذا فإن الفصاحة–في الاصطلاح–تعني الإبانة والظهور والإيضاح والبراعة والبلاغة في اللفظ المفرد والمؤلف.

قال تعالى: (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً) (القصص:٣٤).

وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

ويقول أحمد شوقي في مدح النبي الكريم:

جَرَتِ الفَصاحَةُ مِن يَنابيع النُهى مِن دَوحِهِ وَتَفَجَّرَ الإنشاءُ

أولا: فصاحة الكلمة

تكون الفصاحة للفظ المفرد غالباً، بينما تكون البلاغة في اللفظ المفرد والمؤلف، وفصاحة الكلمة تكمن فيها منفردة ومؤلفة ولكل منها أبوابه، وإذا كان أصحاب البلاغة قد أرجعوا مفهوم البلاغة والفصاحة إلى جوهر اللفظ المفرد في دلالته الوضعية؛ فإنهم ذكروا له عدة أشياء.

١–تنافر الحروف؛ لتقارب المخارج:

هو وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع، وصعوبة أدائها

باللسان؛ بسبب تقارب مخارج حروفها؛ فتقارب مخارج اللفظ يبعده عن الجمال؛ كما في كلمة (الهُعْخع، أوالهمخع)، وهو نبت ترعاه الإبل؛ من قول أعرابي: تركت ناقتي ترعى الهمخع.

ويرجع قبح هذه الكلمة إلى تقارب مخارج حروفها، فحروفها حلقية مما يصعب عملية نطقها بسهولة ويسر، ومثلها كلمة "مستشزرات" في قول امرئ القيس:

وَفَرعٍ يَزينُ المَتنَ أَسوَدَ فاحِمٍ أَثيثٍ كَقِنوِ النَخلَةِ المُتَعَثكِلِ

غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنّىً وَمُرسَلِ

(الغدائر) الضفائر، (والاستشراز) الارتفاع، (والعقاص) جمع عقيصة، وهي الخصلة من الشعر، (والثنى) الشعر المفتول، (والمرسل) ضده . أي: ابنة عمه لكثرة شعرها بعضه مرفوع، وبعضه مثنى، وبعضه مرسل، وبعضه معقوص: أي ملوي؛ فمخارج حروف كلمة (مستشزرات) متقاربة، فأكثرها يخرج من الأسنان.

٢-الغرابة والوعورة والوحشية:

تقع الغرابة والتوعر في الاستعمال في بنية الكلمة، أو بيئتها؛ أو موضوعها، أو ثقافة أهلها؛ مثل كلمة (كهل) الواقعة في قول بعض الهذليين، بمعنى الضخم؛ وهو لأبي خراش الهذلي:

فلو أنَّ سلمى جارَهُ أو أجارَهُ رياحُ بنُ سَعْدٍ ردَّهُ طائرٌ كهلُ

الكهل في اللغة: الرجل الذي جاوَز الثلاثين ووَخَطَه الشيبُ. وقيل: أَراد بالكَهْلِ ههنا الحليمَ العاقلَ أَي أَن الله يدخِل أَهلَ الجنةِ حُلماءَ عُقَلاءَ، قال الله تعالى في قصة عيسى-عليه السلام-: ويُكَلِّم الناسَ في المهدِ وكَهْلاً) (آل عمران: ٤٦)؛ قال الفراء: أَراد ومُكَلِّماً الناس في المهد وكَهْلاً، ولكن الشاعر أتى

بالكهل هنا بمعنى الضخم؛ فلفظة الكهل ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة

إلا أنها تناسب بيئته هو؛ فصار اللفظ غريبا.

وما روي عن عيسى بن عمر النحوي أنه سقط عن حماره، فاجتمع عليه الناس، فقال: "ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني"، أي: اجتمعتم تنحوا، وهذا من الغريب النادر.

وعيب على جرير استعماله لكلمة (بوزع) في قوله:

وتقول بَوْزَعُ: قد دببتَ على العصا هلا هَزَئتِ بغيرنا يا بوزَعُ

وبوزع اسم المرأة، وروي أن الوليد بن عبد الملك قال له: أفسدت شعرك بـ"بَوْزَع".

ومن الألفاظ الكريهة التأليف (الجِرشَّى) في قول المتنبي:

مباركُ الاسْمِ أغَرُّ اللقَبْ كريمُ الجِرِشَّى شريفُ النَّسبْ

فالكلمة وحشية، تأنفها الطباع وتمجها الأسماع، وتتبو عنها، فبدلا من أن يأتي بلفظ النفس أتى بإحدى معانيها، وهو معنى غير مقبول لكراهته في السمع.

٣-مخالفة القياس الصرفي:

وهو كون الكلمة شاذَّة غير جارية على كلام العرب في الصرف؛ فجاءت على خلاف الثابت عن العرف العربي الصحيح في الأوزان الصرفية؛ كقول أبي النجم:

الحمد لله العلي الأجلل الواحد الفرد القديم الأوَّل

الصواب صرفيا : الأجلّ، فليس هناك ضرورة لفك الإدغام هنا.

ومما خالف القياس لفظ "بوقات" جمع مؤنث مفرده "بوق" بمعنى المزمار، في قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بوقات لها وطبول

يقول: إذا كنت سيفا لدولتك له أثره وخطره فغيرك من الملوك بمثابة البوق والطبل لا أثر له، ولا غناء فيه، فلفظ "بوقات" في البيت غير فصيح؛ لمخالفته لما ثبت عن الواضع، وللقياس الصرفي؛ إذ الثابت عن الواضع جمعه جمع تكسير، والقياس الصرفي أيضًا يقتضي جمعه مكسرا، فيقال: "أبواق"؛ لأن جمع المؤنث السالم له مواضع خاصة ليس هذا الاسم منها.

ومن مخالفة القياس الصرفي ما نجده من أخطاء شائعة على ألسنة الناس وفي بعض الكتابات يقولون: السيارة المباعة، ونضوج الفاكهة يزيدها حلاوة، وهذه عصاتي وغير ذلك، والقياس الصرفي يقضي بقول: السيارة المبيعة، ونضج الفاكهة، وهذه عصاي.

وقد جاءت ألفاظ خالفت القياس الصرفي ولكنها من الفصاحة بمكان، فقد استثنيت لفظتا (المشرق والمغرب) بكسر الراء، والقياس فتحها فيهما.

٤-تطور المدلول اللغوي.

تطور المدلول أو الدلالة المجازية قد يكون مدعاة للغرابة، كتطور دلالة الزكاة والصلاة والصيام والسلام... في الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية؛ حتى غدا المعنى الجاهلي غريباً.

٥-ألا تكون الكلمة عامية مبتذلة؛ كقول أبي تمام:

جَلَّيْتَ والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صفحته وقد تَفَرْعَنَ في أوصاله الأجَلُ

فالفعل: تفرعن، مشتق من فرعون، وهو من ألفاظ العامة.

٦-جريان الكلمة على المذهب اللغوي الصحيح، وألا تكون شاذة

عما تواضع عليه العرب من أبنية؛ ومن ذلك قول البحتري:

يشق عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بِكْرٍ وأيِّم

فوضع الأيم مكان الثَّيِّب، وليس الأمر كذلك، إنما الأيم التي لا زوج لها؛ بكراً كانت أو ثيباً.

ومنه صرف ما لا يَنْصرف كجبريل في قول حسان:

وجبريلٌ أمينُ الله فينا وروح القدس ليس لـه كِفاءُ

٧-**ألا تعبر الكلمة عن أمر آخر يكره ذكره**؛ ولم توضع له في الأصل، فإذا أوردت ولم يقصد بها المعنى الأصلي قبحت... كقول أبي تمام:

مُتفجرٌ نادمته فكأنني للدَّلْو أو للمِرْزمينَ نديمُ

فالدلو معروف؛ وهو لاستخراج الماء من البئر، ولكن أبا تمام استعمله هنا اسماً لبرج من بروج السماء؛ فهو يمدح رجلاً بالجود فيقول له: أنت كالدلو كرماً والمرزم جوداً، وكلاهما من نجوم السماء التي يرتبط بها المطر، ولكن الاستعمال للدلو على هذا الوجه غير مألوف.

٨-**اعتدال عدد حروف الكلمة**: فمتى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. فكثرة حروف الكلمة إذا استعملت في الشعر خاصة كانت قبيحة جداً، ولو كانت عربية كما في (سويداواتها) من قول المتنبي:

إن الكريمَ بلا كرام منهمُ مثلُ القلوب بلا سُويداواتِها

إن الكرام من الخيل بلا فرسان كرام من الممدوحين؛ مثل القلوب بلا سواده، والمراد بالسويداء، سواد القلب: حبته وقيل: دمه؛ يقال رميه فأصبتت

سواد قلفبه؛ ولكن المتنبي خرج إلى الشاذ النادر في تركيب لفظ من حروف كثيرة فقبح لطوله وكثرة حروفه؛ والطول وحده قبيح كما في قول أبي تمام حين استعمل كلمة (حَوْباواتها) وهي جمع حوباء بمعنى النفس:

العِيْسُ تعلم أنَّ حَوْباواتها ريحٌ إذا بلغتك إنْ لم تُنْحرِ

ثانيا ـ فصاحة الكلام

تبقى اللفظة فصيحة في موضعها عندما يراعي المتكلم الحال والمقام والمخاطب والدقة في الاستعمال، ويؤدي التأليف إلى إظهار قيمتها وتأثيرها على المعنى الذي وضعت فيه، وفصاحة الكلام تعني سلامته بعد فصاحة مفُرداته ممَّا يُبهم معناه ويحول دون المراد منه، كما أن المراد بفصاحتة أن يتكون من كلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتآلفها، ويسهل على العقل فهمها لترتيب ألفاظها وفق ترتيب المعاني.

وتختلف فصاحة الكلام أحيانا باختلاف التعبير عما يدور بالنفس من المعاني اختلافا ظاهرا، فتجد في عبارات الأدباء من الحسن والجودة ما لا تجد في تعبير غيرهم، مع اتحاد المعنى الذي يعبر عنه.

– وتتحقَّق فصاحة الكلام بخلُوه من عدة عيوب:

الأول –تنافُر الكلمات في التركيب: أن تكون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها، عَسرة النّطق بها مُجتمعةً على اللّسان، وإن كان كل جزء منه على انفراده فصيحاً؛ كقول الشاعر:

وَقبرُ حرب بمكان قفرٌ وَليس قَرب قبر حربٍ قبرُ

فالثقل ناتج من تقارب الحروف في المخرج؛ فيصعب تكرار المقطع مرات متتالية.

ومثله قول الأعشى:

وَقَد غَدَوتُ إلى الحانوتِ يَتبَعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ

شاوٍ : يشوي اللحم ، **مِشَلٌّ شَلولٌ** : سائق ماهر ، **شُلشُلٌ** : خفيف سريع في العمل، **شَوِلُ** : يحمل الشيء.

ومثله قو المتنبي:

فَقَلقَلتُ بِالهَمِّ الَّذي قَلقَلَ الحَشا قَلاقِلَ عيسٍ كُلُّهُنَّ قَلاقِلُ

قلقل: حرك و"قلاقل" الأولى جمع قلقلة، وهي الناقة السريعة "وقلاقل" الثانية جمع قلقلة بمعنى الحركة، وضمير كلهن "للعيس" وهي النوق، والمعنى: حركت بسبب الهم الذي حرك نفسي نوقًا خفافًا في السير، والمراد أنه سافر ولم يعرج بالمكان الذي يلحقه فيه ضيم.

ومنه قول أبي تمَّام:

كريمٌ متى أمدَحهُ أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي

لأن فى قوله: (أمدحه) ثقلا؛ لما بين الحاء والهاء من التنافر، فإنهما حرفان متنافران لتقاربهما، فإن التقارب قد يكون سببا للتنافر؛ ولذلك حكم على الكلمات التى تكررت فيها الحروف المتماثلة بالثقل كما تقدم، ثم فيما قاله من ثقل (أمدحه) نظر؛ فإن اجتماع الحاء والهاء فصيح؛ لوروده فى القرآن قال الله تعالى: ومن الليل فسبحه، وإنما جاء الثقل هنا من تكرار أمدحه.

ومثله قوله أيضا:

فَالمَجدُ لا يَرضى بِأَن تَرضى بِأَن يَرضى المؤمل منك إِلّا بِالرِضا

<u>الثاني –ضعف التأليف</u>: بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على خلاف القانون النحويّ المشتهر عند جمهور النحاة؛ كوصل الضميرين، وتقديم غير الأعراف

منهما على الأعرف مع أنه يجب الفصل في تلك الحالة –كقول المتنبي:

خَلتِ البلادُ من الغزالةِ ليلَهَا فأعاضهَاكَ اللهُ كي لا تحزنا

يقول: جعلك الله عوضا من الشمس للبلاد وأهلها عن فقد الشمس بالليل كيلا يحزنوا.

وقد اجتمع ضمير المخاطب والغائب فالصواب تقديم المخاطب على الغائب، فيجوز القول: فأعاضكها الله.

الشاهد والصواب عند سيبويه: فأعاضها إياك.

وكالإتيان بالضمير متصلا بعد إلا؛ في قول المتنبي:

لَيسَ إلّاكَ يا عَلِيُّ هُمامٌ سَيفُهُ دونَ عِرضِهِ مَسلولُ

يقول: ليس أحد من الملوك يقي عرضه بسيفه غيرك ويضاريك شجاعة، وفي البيت ضعف في التأليف حيث وضع الضمير المتصل (الكاف) بعد إلا، وحقه وضع المنفصل (إياك)، فالصواب: إلا إياك.

وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظا وَرتُبة وحكما في غير أبوابه؛ نحو قول الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

"سنمار" اسم رجل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصرًا فخمًا بالكوفة سماه "الخورنق" وقد أتقن بحذقه وبراعته صنعه، ولما أتم بناءه وزخرفه ألقاه النعمان من أعلاه لئلا يبني قصرًا مثله لغيره، فمات سنمار لساعته، وضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بالشر. ومعنى البيت: أن الشاعر دعا على أبي الغيلان أن يجازيه أولاده مع كبر سنه، وحسن صنيعه معهم شر جزاء، كما وقع لسنمار.

والشاهد فيه: (جزى بنوه أبا الغيلان) حيث أخّر المفعول به وهو (أبا الغيلان)، عن الفاعل وهو قوله (بنوه) مع أنّ الفاعل متّصل بضمير

عائد على المفعول، فعاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة، وهذا ممّا لا يجيزه جمهور النحويين؛ فهو إذًا غير فصيح لضعف تأليفه.

فضعف التأليف ناشئ، من العدول عن المشهور، أما إذا خالف ما أجمع علي؛ كجر الفاعل ورفع المفعول فيفسد الكلام تماما.

الثالث – التعقيد اللفظي : وهو أن يختل على السمع نظم الكلام فلا يدرى كيف يصل إلى معناه، وينشأ ذلك التّعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبي بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتصل بعضها ببعض) ؛ كقول المتنبي:

جَفَخَت وَهُم لا يَجفَخونَ بِهابِهِم شِيَمُ عَلى الحَسَبِ الأَغَرِّ دَلائِلُ

أصله –جفخت (افتخرت) بهم شيمَ دلائل على الحسب الأغر هم لا يجفخون بها.

فلفظة جفخت مرة الطعم، وإذا مرت على السمع اقشعر منها: ولو استعمل (المتنبي) عوضا عن جفخت (فخرت) لاستقام البيت، وحظى في استعماله بالأحسن.

ومثله قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

يريد وما مثل إبراهيم الممدوح فى الناس حى يقاربه إلا مملكا، وهو هشام أبو أمه، والضمير فى (أمه) للمملك،وهو هشام وفى (أبوه) للممدوح ففصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ و (أبوه) وهو خبر (بحى) الأجنبى، وفصل بين المبتدأ والخبر، وهما مثله وحى بقوله (فى الناس إلا مملكا أبو أمه) وفصل بين (حى) وهو موصوف ب (يقاربه) (بأبوه) وهو أجنبى، وقدم المستثنى على المستثنى منه فلذلك كان ضعيفا ذا تعقيد، فالخالى من التعقيد ما لا يكون فيه

ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك، إلا بقرينة ظاهرة لفظا أو معنى.

أصل ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه، فقدم وأخر في الكلمات، فألغز إلغازا سيئا.

فالشاعر أراد أن يقول: إن ممدوحه قد بلغ من الفضائل مبلغا لم يلحقه فيه أحد من الأحياء إلا حي واحد له صلة بهذا الممدوح، فهو ابن أخته وهو ملك أيضا.

يقول الزمخشري: " فانظر أتتَصَوَّر أن يكون ذلك للفظهِ من حيث إنّك أنكرتَ شيئاً، من حروفه، أو صادفتَ وحشيّاً غريباً، أو سُوقيّاً ضعيفاً؟ أم ليس إلاّ لأنه لم يُرَتَّب الألفاظ في الذكر، على مُوجب ترتيب المعاني في الفكر، فكدَّ وكَدَّر، ومنع السامع أن يفهم الغرضَ إلاّ بأنْ يُقدِّم ويؤخّر، ثم أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام.". وربما كانت ضرورة الوزن هي من حملت الشاعر إلى هذا التعقيد.

<u>الرابع – التعقيد المعنوي:</u> كون التركيب خفيّ الدَّلالة على المعنى المراد – بحيث لا يفهم معناه إلاّ بعد عناء وتفكير طويل، وذلك لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى المقصود بسبب إيراد اللوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدّالة على المقصود .

بحيث يعمد المتكلم إلى التعبير عن معنى فيستعمل فيه كلمات في غير معناها الحقيقي، فيسيء اختيار الكلمات للمعنى الذي يريده، فيضطرب التعبير ويلتبس الأمر على السامع نحو: نشر الملك ألسنته في المدينة، يريد جواسيسه والصواب نشر عيونه.

وبأن يكون فهمُ المعنى الثاني من الأول بعيداً عن الفهم عُرفا كما في قول عبّاس بن الأحنَف:

سأطلبُ بُعد الدار عنكم لتقرُبوا وتسكبُ عيناي الدُّموع لتجمُدا

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن، وأصاب؛ وأراد أن يكنى عما يوجبه التلافي من السرور بجمود العين لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر وأخطأ؛ إذ الجمود خلو العين من البكاء حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة، بل كناية عن البخل.

فما نهجه الشاعر هنا خفيّ وبعيدٌ ؛ إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدُّعاء لشخص بالسرور (أن يقال له جُمدت عينك) أو لا زالت عينك جامدةً، بل المعروف عندهم أنّ جمود العين إنّما يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن، كما في قول الخنساء.

أعيني جودا ولا تجمُدا ألا تبكيانِ لصَخر النَّدى

ويروى أن امرأة دخلت على هارون الرشيد وكان في اجتماع مع أعيان رجال الدولة. فقالت بعد التحية: يا أمير المؤمنين أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم الله سعدك، لقد حكمت فقسطت؛ فسألها الرشيد: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك، من قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فنفذ فيهم حكم الله، وأما المال فمردود عليك، ثم ألتفت إلى الحاضرين، وقال: أتدرون ماذا قالت المرأة؟ قالوا ما قالت إلا خيراً. قال الرشيد: أنتم لم تفهموا مرادها؛ فقولها أقر الله عينك بمعنى أسكنها عن الحركة، وسكون العين عن الحركة يعني العمى، وأما قولها وفرحك بما آتاك تقصد به قوله تعالى:(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُون)(الأنعام:٤٤).وأما قولها : وأتم الله سعدك؛ فأخذته من قول الشاعر:

إذا تَم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته، من قوله تعالى (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا

لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) (الجن:١٥)؛ فتعجب الحاضرون من بلاغة المرأة وذكاء الرشيد.
وقد ربط الرشيد بين خلفية المرآة التي هي من آل برمك، وبين مقدمات حديثها وبين ما حل بآل برمك من عقاب؛ ففطن إلى مرادها.
وهكذا كل الكنايات التي تستعملها العرب لأَغراض ويُغَيرها المتكلمُ، ويريد بها أغراضاً أخرى تعتبر خروجاً عن سُنن العرب في استعمالاتهم، ويُعدّ ذلك تعقيداً في المعنى: حيث لا يكون المراد بها واضحاً.
الخامس –كثرة التكرار : كون اللفظ الواحد: اسماً أو فعلاً أو حرفاً، وسواء أكان الاسم: ظاهراً أو ضميراً، تعدّد مرَّة بعد أخرى بغير فائدة؛ كقوله:

إنّي وأسطارٍ سُطرنَ سَطراً لَقائلٌ يا نصرُ نصرُ نصراَ

يقول الشاعر: مقسما بأسطار (وهي آيات القرآن) كتبت سطرا سطرا، أن نصر بن سيار أمير خراسان سوف ينتصر نصرا عظيما.
وكقول المتنبي:

عِشِ اِبقَ اِسمُ سُد قُد جُد مُرِ اِنهَ رِفِ اِسرِ نَل غِظِ اِرمِ صِبِ اِحمِ اِغزُ اِسبِ رُع زَع دِلِ اِثنِ

وقال حازم القرطاجني: إن بيت المتنبي إنما قبح لقصر كلماته المتوالية التي على حرفين، وينبغي أن يذكر هذا فى شروط فصاحة الكلام.
وكقول أبي تمَّام في المديح:

كأنَّه في اجتماع الرُّوح فيه لَهُ في كلِّ جارحةٍ من جسمِهِ رُوحُ

المراد بالكثرة ههنا ما فوق الوحدة؛ فذكر الشيء ثانيا تكرار، وذكره ثالثا كثرة، وانما شرطت الكثرة لأن التكرار بلا كثرة لا يخل بالفصاحة، وإلا لقبح التوكيد اللفظي.
ومنه قول أبى الطيب:

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

ومن التكرار الحسن:

قول النبى صلى الله عليه وسلم:" الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم". وهنا استشهاد على عدم كراهية التكرار.

السادس: تتابعُ الإضَافات: كون الاسم مضافا إضافةً مُتداخلة غالباً، كقول الشاعر:

حمامَةَ جَرعا حَومةِ الجَندَلِ اسجَعِي فأنتِ بمرأى من سُعادَ ومَسمع

ففيه إضافة حمامة إلى جرعا وهو تأنيث الأجرع وهو المكان ذو الحجارة السود، أو مكان الرمل الذي لا ينبت شيئا (وجرعا) مضاف إلى (حومة) وهي معظم الشيء (وحومة) مضاف إلى (الجندل) بسكون النون وهو الحجر، والمراد به هنا مكان الحجارة، فهو بمعنى الجندل بفتح النون وكسر الدال – وقوله : فأنت بمرأى من سعاد ومسمع، أي أنت بحيث تراك سعاد وتسمع كلامك – يقول: اسجعي يا حمامة أرض قفرة سبخة، فإن سعاد تراك وتسمعك.

وقال عبد القاهر: لا شك فى ثقل ذلك فى الأكثر، إنما هو قد يحسن إذا سلم من الاستكراه.

وبذلك ففصاحة الكلام تكون بخُلوّه من تنافر كلماته ومن ضعف تأليفه، وتعقيد معناه، ومن وضع ألفاظه في غير المواضع اللائقة بها.

البلاغة

البلاغة في اللّغة: بلغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهى إلى غايته، أبلغْتُ الشيءَ إبلاغاً وبَلاَغاً، وبلَّغتُهُ تَبْليغاً، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته، وبَلَغَ الْغُلاَمُ وبَلغت الجارية، إذا وصَلا إلى انتهاء مرحلة ما دون التكليف، ودخلا في مرحلة التكليف، ويكون ذلك باحتلام الغلام وحيض الجارية، ويُقَال: ذكَرٌ بالغ، وأنثى بالغٌ وبالغة.

بلوغ الرجل بعبارته كنه مراده، أي: غايته، يقال: بلغ محمد بلاغة، إذا كان يبلغ بعبارته الغاية التي يريدها.

وأصل مادّة الكلمة في اللّغة تدور حول وُصُولِ الشيء إلى غايته ونهايته، أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته.

البلاغة عند أهل اللّغة: هي حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد، والرجل البليغ هو من كان فصيحاً حسَنَ الكلام يَبْلُغُ بعبارة لسانه غايةَ المعاني الّتي في نفسه، ممّا يُرِيد التعبير عنه وتوصيلَهُ لمن يُرِيد إبلاغه ما في نفسه، وتقع البلاغة وصفا للكلام، والمتكلم، ولم يسمع وصف الكلمة بها.

بلاغة الكلام في الاصطلاح: هي مطابقة الكلام لمقتضى حَال من يُخَاطبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمَله؛ فيشترط في الكلام البليغ؛ أن يكون فصيح المفردات والجمل، وأن يكون مطابقاً لمقتضى حال من يُخَاطبُ به.

ومن أقوال البلغاء في تحديد مفهوم البلاغة كما تصوّرها من وردت هذه الأقوال على ألسنتهم، بيد أن النظر في كل قول من هذه الأقوال لا يعطينا مفهوما جامعا مانعا للبلاغة، ولكن ربما التمس مفهوم البلاغة المنشود من

ثنايا بعض هذه الأقوال، سئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يفهم وكثير لا يسأم. وسئل آخر فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة.

وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز. وسئل بعض الأعراب: من أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظا، وأحسنهم بديهة.

وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة.

وقال الخليل بن أحمد: البلاغة كلمة تكشف عن البقية.

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل.

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي إلى عمرو بن مسعدة: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا، وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة.

وقال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الوصل.

وقيل البلاغة: حسن العبارة، مع صحة الدلالة.

ولعل أقرب التعريفات إلى تعريف المتأخرين للبلاغة هو قول أبي هلال العسكري: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن".

فالبلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وبذلك يتفاضل القائلون، ويعلو بعض الكلام على بعضه في درجات البلاغة. وقد عرف المتأخرون البلاغة بأنها: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

بناء الجملة في اللغة العربية

تعريف الجملة:

الجملة المفيدة كلامٌ تامٌّ يَدُلُّ على معنىً أقلُّه نسبةُ شيءٍ إلى شَيْءٍ إثباتاً أو نفياً، أو إنْشاءُ ربْطٍ بينَ شيءٍ وشيءٍ آخَرَ يكفي لإنشائِهِ الْقَوْلُ، مثل أمْر التكوين، أو الأمْرِ بفعلٍ ما.

وأقلُّ مَا تتألف منه الجملة عنصر أن يُعَبَّرُ عَنْهُما باللفظ، وهما:

(١) مُسْنَدٌ إليه، ويُسَمَّى محكوماً عليه.

(٢) ومُسْنَدٌ، ويُسمَّى محكوماً به.

(٣) ويُلْحَقُ بالجملة المفيدة توابعُ المسند إليه والْمُسْنَدِ إنْ وُجدَتْ، فمنها المفاعيل، والأدواتُ، ما يَدُلُّ عَلى القيود لأرْكان الجملة، كالصفات والأحوال والقيودِ الزمانيّة والمكانيّة.

والجمل نوعان : الجملة الإسمية والفعلية.

أولا: الجملة الإسمية:

وهي الجملة التي يقع الاسم في أولها وقوعاً أصيلاً، بمعنى أن الاسم في أولها يستحق الابتداء به، وإن تأخر عن صدر الجملة، ووضعت لإفادة ثبوت المسند للمسند إليه؛ فالجملة الإسمية بأصل وضعها ثبوت الحكم فحسب، بلا نظر إلى تجدد ولا استمرار، فقولنا: الله واحد لا تفيد الجملة هنا إلا ثبوت الوحدانية لله تعالى دون النظر إلى التجدد والاستمرار.

ولكن قد تحف بها قرائن أخرى تستفاد من سياق الكلام، كأن يكون في معرض مدح أو ذم أو حكمة، أو نحو ذلك، فتفيد لدوام والاستمرار حينئذ، وعليه قول النضر بن جويرية يتمدح بالغنى والكرم:

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

فهو يريد أن دراهمهم دائمة الانطلاق تمرق من الكيس مروق السهام من قسيها لتوزع على المعوزين وأرباب الحاجات، كما يرشد إلى ذلك ما قبله:

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمنا ظلت إلى طرق المعروف تستبق

والشاهد قوله: (وهو منطلق) فالدرهم لا يستقر عنده؛ لذلك فهو باستمرار ينطلق كرماً وإغاثة للناس المحتاجين، وقد قدَّم السياق القرائن الدالة على ذلك.

ومثله قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤)، فسياق الحديث في معرض المدح دال على إفادة الاستمرار والدوام.

تفيد الجملة الإسمية الدوام والاستمرار في أصلها، ما لم يكن هناك ما يضفي عليها التجدد، والسبب في هذا هو السياق.

ثانيا: الجملة الفعلية:

وهي الجملة التي تبدأ أصالةً بفعل تام، وركناها: الفعل والفاعل، أو نائب الفاعل، وتوضع لإفادة الحدوث في زمن مخصوص؛ كالماضي والمضارع مع الاختصار؛ أو تفيد الاستمرار والتجدد إذا دلت عليه القرائن؛ فالجملة الفعلية بأصل وضعها على التجدد في زمن معين مع الاختصار، فلا يستفاد من نحو: حضر محمد، إلا إثبات الحضور فعلا لمحمد في زمن مضى.

تفسير هذا أن الفعل يدل على أحد الأزمنة الثلاثة بذاته لا بقرينة خارجة عنه، وهذا الزمن الذي هو أحد مدلوليه "مدلوله الثاني الحدث" لا تجتمع أجزاؤه في الخارج، بل تتصرم وتنقضي شيئا فشيئا، ومن ثم كان الفعل مع إفادته الزمن يفيد أيضا تجدد الحدث وحصوله بعد أن لم يكن، بخلاف الاسم، فإنه إنما يدل على الزمن المعين بقرينة أخرى، كأن يقال: أمس أو الآن أو

غدا.

وقد يفيد الفعل سواء كان ماضياً أم مضارعاً التجدد والاستمرار إذا وجدت القرائن؛ كقوله تعالى: (كنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس) (آل عمران:١١٠)، فالخيرية ما زالت مستمرة دوام تجدد هذه الأمة وبقاء البشرية على الأرض.

أركان الجملة: الجملة الاسمية أو الفعلية تحتاج إلى ركنين أساسيين اصطلح على تسميتهما (المسند والمسند إليه)، ولا يغني أحد منهما عن الآخر.

والركنان الأساسيان (المسند والمسند إليه) يبرزان معاني كثيرة وأغراضاً شتى مرتبطة بأحوال المخاطب والمتكلم تبعاً للمقام، فضلاً عن الجماليات الخاصة المتعلقة أيضاً بأحوال الإسناد.

مواضع المسند إليه والمسند:

أولا: مواضع المسند إليه:

المسند إليه: هو المُخْبَر عنه؛ أو المحكوم عليه؛ وهو الأصل في المعنى وعليه دوران الحدث وعنه يصدر؛ سواء وقع اسم ذات، أو معنىً، أو مصدراً، وهو معلوم من قبل السامع. ومواضعه هي:

١-**المبتدأ:** هو المسنَدُ اليه، الذي لم يسبقهُ عاملٌ، وهو الذي له خبر، وما له مرفوع يغني عن الخبر.

كقوله تعالى:(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) (السجدة:٤).

وقال أبو الفضل الوليد من شعراء المهجر:

الحبُّ في الوصلِ لذاتٌ لها أَجَلٌ وفي التَّشوُّقِ لذاتٌ بلا أَجَل

٢ . **اسم كان وأخواته:** كقولنا: كان عمر عادلاً؛ وكقوله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) (التين:٨)

وقال المتنبي:

وأصبح شعري منهما في مكانه وفي عنق الحسناء يستحسن العقْدُ

٣. اسم إن وأخواتها: كقولنا: إن محمدا صادق؛ وكقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (يونس:٤٤)؛ وكقول أحمد محرم: **لَيتَ الزلازِلَ وَالصَواعِقَ في يَدي فَأَصَبَّها لِلغافِلينَ قَوافِيا**

٤ . **المفعول به الأول لفعل (ظن وأخواتها)** كقولنا: أظن عليا محبوباً؛ كقوله تعالى: (ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون) (النور:٥٧).

وقال الفرزدق يهجو أصم باهلة، واسمه عبد الله بن الحجاج:

أأجعل داراً كابنَي دخانٍ وكانا في الغنيمةِ كالركابِ

ابنا دخان غني وباهلة، وكانوا يسبون بذلك في الجاهلية، كالركاب أي لا امتناع بهم كما لا تمتنع الركاب.

٥ . **المفعول الثاني للأفعال المتعدية لثلاثة مفاعيل؛** كقولنا: علمت محمدا مجتهدا.

كقوله تعالى: (أَرأيتَكَ هذا الذي كرمت عليَّ) (الإسراء:٦٢).

٦. الفاعل: اسم مرفوع يقع بعد فعل مبني للمعلوم أو شبهه، ويدل على مَنْ فعل الفعل أو اتصف به، وذلك مثل: (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) (الجاثية:٢٢)، وقوله:(مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) (فاطر:٢٨)؛ فلفظ الجلالة (الله) فاعل

للفعل المبني للمعلوم (خَلَقَ)، و(ألوانه) فاعل لاسم الفاعل (مختلفٌ). وكقوله تعالى: (يأيها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (النساء:١٧٤)

وفي قول المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غِشاءٍ من نِبَالِ

فَصِرْتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

٧-**نائب الفاعل:** اسم مرفوع يقع بعد فعل مبني للمجهول أو شبهه، وينوب عن الفاعل بعد حذفه، ويأخذ أحكامه، ومن أمثلته؛ قوله تعالى: (خُلِقَ الإنسانُ من عجل)، وتقول: محمدٌ محمودٌ فعله ، فـ (الإنسان) نائب فاعل للفعل المبني للمجهول (خُلِقَ) ، و(فعله) نائب فاعل لاسم المفعول (محمودٌ).وكقوله تعالى:(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)(البقرة:٢١٢)

وقول الشاعر:

ولا عَيْبَ فيه لامرئٍ غيرَ أَنَّهُ تُعَابُ لـه الدنيا وليس يُعابُ

٨. شبه الفاعل: يقع بعد كل اسم قام مقام الفعل المبني للمعلوم؛ كاسم الفاعل مثل: رأيت طاهراً قلبُهُ، أو كالصفة المشبهة؛ نحو: مررت بالكريم نَسبُه، فلفظ (قلبه ونسبه) فاعل، ومنه قول أبي العلاء المعري:

غَيْرُ مُجدٍ في مِلَّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادي

فالمسند إليه (نَوْح) سد مسد الخبر؛ لأنه جاء فاعلاً لاسم الفاعل (مجدٍ).

٩. شبه نائب الفاعل: يقع بعد كل اسم قام مقام الفعل المبني للمجهول؛ كاسم المفعول؛ نحو: رأيتُ المحمود خلقُه. (خُلُقه: نائب فاعل). وقال الشاعر:

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبُهُ وربما صحَّتِ الأَجسامُ بالعِلَلِ

٢ . مواضع المسند:

المسند: هو الذي يحقق مبدأ تثبيت العناصر الفنية بالمسند إليه، ويكسبه الصورة الجمالية الموحية.

هو المخبر به عن المسند إليه؛ أو المحكوم به، لأنه صفة في المعنى، وبه تتعلق الفائدة.

ومواضعه كثيرة؛ منها:

١ . **المبتدأ المكتفي بالمرفوع:** الأصل أن يأتي المبتدأ مسنداً إليه كما سبق، ولكنه قد يأتي مسنداً إذا اكتفى بمرفوع سد مسدَّ الخبر؛ فالمرفوع هو الذي يغدو فاعلاً في المعنى (مسنداً إليه) بينما المبتدأ يحل محل الخبر في عملية الإسناد كقولنا: أقائم زيد؟!؛ فزيد: فاعل سد مسد الخبر وهو المسند إليه، لذلك كلمة(قائم) إن أُعربت مبتدأ فهي مسند، وعليه قول الشاعر:

غَيْرُ لاهٍ عِدَاكَ فاطَّرِحِ اللَّـ هْوَ ولا تغترر بعارض سلم

(غير) مبتدأ، وهو مسند؛ لأنه اكتفى بمرفوعه الفاعل (عداك)، الذي جاء فاعلاً لاسم الفاعل (لاه).

٢ . **الخبر:** والخبرُ ما أُسنِدَ الى المبتدأ، وهو الذي تتمُّ به مع المبتدأ فائدة، وكل خبر يتّصف بالمبتدأ يكون مسنداً كالخبر (مفيد) في قولنا: العلم مفيد؛ وكالخبر (بعيدة) في قول العرب: فلانةُ بعيدة مَهْوَى القِرْط؛ والخبر (مثلُ) في قول عنترة يصف ساق أمه وشعرها:

الساقُ منها مِثْلُ ساقِ نَعامةٍ والشَّعْر منها مِثْلُ حَبِّ الفلفلِ

٣ . خبر (إن وأخواتها): أينما وقع وكيف كان شكله فهو مسند، كقولنا: إن العلم نور، فلفظ (نور) خبر (إن) وهو مسند، وكذلك (شَجَرَةٌ) في قوله تعالى:(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) (الصافات:٦٤)

وكلمة (تبسم) في قول البحتري خبر (كأن) وهي المسند:

كأن سناها بالعشيّ لصُبْحِها تَبَسُّمُ عيسى حينَ يَلْفظ بالوَعْدِ

والجار والمجرور (منهم) و(بعض) مسند في قول المتنبي:

فإن تَفِقِ الأنامُ، وأَنْتِ مِنْهم فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزال

وكلمة (جميل) في قول أبي خراش الهذلي يخاطب امرأته:

فلا تحسبي أني تناسيتُ عهدَهُ ولكنَّ صَبْرِي –يا أميمَ–جميلُ

٤ . خبر كان وأخواتها: قد يأتي في خبر الأفعال الناقصة، لأن الأفعال الناقصة تعد من أدوات الربطِ، وليست من المسند إليه كالفعل التام؛ ومن ذلك قولنا: كان عمر حسنَ التدبير؛ وكذلك (جاثمين)، في قوله: (فأصبحوا في دارهم جاثمين) (الأعراف:٩١)

وكقول خويلد بن مرة الهذلي:

فإنْ أَكُ مقتولاً، فكنْ أَنْتَ قاتلي فبعضُ منايا القومِ أكرمُ من بعضِ

فكلمة (حسن، مقتولاً، قاتلي) مسند.

٥ . المفعول به الثاني لفعل (ظن وأخواتها):

لما كان المفعول به الثاني في ظن وأخواتها خبراً في الأصل بقي المسند في الدلالة والحكم وإن نُصِبَ بها وصار مفعولاً؛ كقولنا: ظننت خالداً غائباً، وكقوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة) (النمل:٨٨). وقوله: (إنا جعلناه

قرآناً عربياً) (الزخرف:٣)، وقوله: (وجعل الشمس سراجاً) (نوح :١٦).

٦ . المفعول به الثالث للفعل المتعدي لثلاثة مفاعيل: قد تتعدى بعض الأفعال لثلاثة مفاعيل كالفعل (أرى، وأنبأ ونبَّأَ، واتخذ...). والمفعول الثاني والثالث في الأصل مبتدأ وخبر، أي مسند إليه ومسند؛ كقولنا: أنبأتُ عليا العلم نافعا؛ وكقوله تعالى: (وكذلك يريهم الله أعمالَهم حسراتٍ عليهم) (البقرة:١٦٧). فلفظ (نافعا، حسرات)، مسند.

٧ . الفعل التام: إذا جاء الفعل تاماً مبنياً للمعلوم أو مبنياً للمجهول وأياً كان نوعه ماضياً أم مضارعاً أم أمراً فهو مسند متصف بالفاعل، فمن المبني للمعلوم والأمر قوله تعالى: (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (آل عمران:٣١). أو كقول الشاعر:

لأستسهلنَّ الصَّعْبَ أو أُدركَ المُنى فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ

٨ . اسم الفعل العامل عمل فعله: اسم الفعل كلمة تدل على ما يدل عليه الفعل غير أنها لا تقبل علامته، وإما أن يكون بمعنى الفعل الماضي، نحو (هيهات) بمعنى بَعُد، وإما بمعنى المضارع نحو (أف) أي أتضجر، وإما بمعنى الأمر مثل (آمين) أي استجب.

كقوله تعالى:(هيهات هيهات لما توعدون) (المؤمنون:٣٦). وهيهات تستعمل للماضي بمعنى بَعُد.وكقوله تعالى: (هاؤم اقرؤوا كتابيهْ) (الحاقة:١٩). وهاؤم تستعمل للأمر (خذوا).

وقال الشاعر:

أصبحتَ تأمرُ بالحجابِ لخلوةٍ هيهاتَ لستَ على الحجاب بقادرِ

فأينما ورد اسم الفعل وبأي صيغة فهو مسند، لأنه حلَّ محل الفعل

معنىً.

٩. المصدر النائب عن فعله: وينوب المصدر عن فعله سواء كان أمراً أم مضارعاً؛ فيكون مسنداً؛ ففي الأمر قول قطري بن الفجاءة:

فَصَبراً في مجالِ الموتِ صبراً فما نَيْلُ الخلودِ بمستطاعِ

(صبراً) مصدر ناب عن الفعل (اصبر) فحل محله في كونه مسنداً.

من أحوال الإسناد

الذكر والحذف

أولا . بلاغة الذكر:

الغرض من الذكر الاهتمام بالمذكور وتوجيه السامع إليه وكمال العناية به، فإذا دل اللفظ على معنى فيه؛ فالأصل ذكره، هذا التركيز على الذكر لبواعث بلاغية تتصل بعملية الإقناع والتوصيل من المتكلم إلى السامع. وهناك كثير من الدواعي البلاغية لذكر المسند إليه أوالمسند.

أ . ذكر المسند إليه:

يذكر المسند إليه؛ ولا مقتضى للمتكلم للعدول عنه؛ لأن ذكره هو الأصل فهو محكوم عليه والفاعل في المعنى؛ ومنها:

١. التلذذ بذكر المسند إليه:

ومنه قول الشاعر قيس ذريح في فراق محبوبته لبنى:

فَيا قَلبُ خَبِّرني إِذا شَطَّتِ النَوى بِلُبنى وَصَدَّت عَنكَ ما أَنتَ صانِعُ

فَما أَنا إِن بانَت لُبَينى بِهاجِعٍ إِذا ما اِستَقَلَّت بِالنِيامِ المَضاجِعُ

فَلا خَيرَ في الدُنيا إِذا لَم تُواتِنا لُبَينى وَلَم يَجمَع لَنا الشَمَلَ جامِعُ

ذكر المسند إليه (لبينى) في الأبيات، وهو تصغير لبنى تدليلا، وكان من الممكن أن يحذفه استغناء بذكره، ولكنه ذكر محبوبته تلذذا، وإظهارا لهيامه بها.

٢-التقرير والإيضاح:

فالمتكلم يسعى إلى إثبات حكم ما وتقريره في ذهن السامع دون

غيره؛ كقوله تعالى: (أولئك على هدىً من ربِّهم، وأولئك هم المفلحون) (البقرة :٥). فاسم الإشارة المبتدأ (أولئك) وهو المسند إليه قد تكرر للتوضيح والتنبيه إشارة إلى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها، وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم في الفضل.

٣ . ضعف الثقة بالقَرينة:

قد لا يستطيع المتكلم التعويل على القرينة؛ لضعفها في الدلالة؛ أو لضَعف فهم السامع؛ كقوله تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم... فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (البقرة :٧٩). فإثبات المسند إليه (ويل) غير مرة يؤكد ضَعْف الثقة بفهم السامع، واستمرار بالجحود.

٤ . الرد على المخاطب:

ويتوجه فيه المتكلم إلى المستمع في أمر ما يستدعي الحيرة، أو التكذيب.

يقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) رداً على الكفار: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، ومثل قول عمرو بن كلثوم وقد تخيل أن قبائل العرب لا تعترف بمنزلة قومه فقال:

ونحن الحاكمون إذا أُطعنا ونحن العازمون إذا عُصينا

٥ . التعريض بغباء السامع:

إذا كان المخاطب ما يلقى إليه من أمور، إذ لابد من التصريح حتى يصل إليه ما يريد المتكلم إيصال إليه، ؛ كقول الشاعر؛ لمن سأل ماذا يفيد الجد؟:

الجِدُّ يُدني كُلَّ أَمْرٍ شاسعٍ والجِدُّ يفتح كل بابٍ مُغْلَقِ

٦-التعظيم:

ويستدل من سياق ذكر المسند إليه أنه يفيد به تعظيما وإجلالا؛ كقول الشاعر، وكأنه يردُّ على سؤال سائل عن قومه: لماذا تراجعت منزلتهم؟:

إني منَ القوم الذين همُ همُ إذا مات منهم سيِّدٌ قامَ صاحبُهْ

وقال مروان بن أبي حفصة في مدح معن بن زائدة:

بنو مطرٍ يوم اللقاءِ كأنهم أسودٌ لها في بطن خَفَّان أشبُلُ

همُ يمنعون الجار حتّى كأنما لجارهمُ بين السِّماكين منزلُ

٧-التبرك:

كأن يبدأ المتكلم باسم (مسند إليه) فيه التبرك، والالتماس؛ والتقدير؛ كقوله تعالى: (اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (الشورى:١٥)

محمد (صلى الله عليه وسلم) رسولنا وحبيبنا وشفيعنا.

ب-ذكر المسند:

يذكر المسند أيضا لمثل هذه الدواعي التي ذكر معها المسند إليه، ومن هذه الدواعي البلاغية:

١-التقرير:

فالمتكلم يسعى إلى إثبات الخبر (المسند) للمبتدأ (المسند إليه) دون غيره، على وجه التقرير ونسبة الصفة إليه كقولنا: الصحة خير من المال، وكقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (يونس: ٥) فالمسند

(الذي) متصف بنسبته إلى المسند إليه (هو) على وجه تقرير جعله الشمس ضياء والقمر نورا ونسبته إليه دون شرك أو منازع.

٢-ضَعف الثقة بالقرينة:

يتعلق ضعف الثقة بالسامع وقدرته على الفهم؛ أو بقصور القرينة ذاتها، مما يؤدي إلى اللبس في الكلام؛ مما يجبر المتكلم على إثبات المسند كقوله تعالى: (كشجرةٍ طيبةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفرعها في السماء) (إبراهيم:٢٤) فلو حذف المسند (ثابت؛ في السماء) لما تنبه السامع على دلالة المسند إليه (أصل؛ فرع)، ضعف القرينة هو الذي جعل الله سبحانه يثبت المسند للمسند إليه لئلا يتجه المعنى اتجاهاً آخر.

ومثله قول الشاعر:

إنَّما الدنيا متاعٌ زائل فاقتصد فيه وخُذْ منه ودَعْ

فقد قصر المتاع (المسند) على المسند إليه (الدنيا) ليزيل أي معنى آخر عنها.

٣-الرد على المستمع:

يكون إثبات المسند نتيجة لسؤال مثار في ذهن المتخيّل، أو في سياق الجملة على لسان المخاطب أو السامع كقوله تعالى: (قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة) (يس:٧٨-٧٩) فالسؤال أثبت المسند للمسند إليه (وهي رميم) ثم جاء المسند في الإجابة فعلاً: (قل-يحييها-أنشأها)

وكقول الشاعر:

تسائلني ما الحبُّ؟ قلْتُ: عواطفٌ مُنَوَّعةُ الأجناسِ موطنها القلبُ

٤-أن يفيد المسند تجددا في الحدث:

لعل من خصائص المسند في بنيته التركيبية أنه يأتي فعلاً، أو ظرفاً، أو جاراً ومجروراً، فضلاً عن كونه اسماً... وقد يفيد التجدد في الزمن، وربما يفيد ثباته مطلقاً في حالة دلالة القرينة في الفعل عليه. ويتجدد الحدث سواء كان الفعل ماضياً أم مضارعاً؛ كقوله تعالى: **(إِنَّ** الْمُنَافِقِينَ يخادعون الله وهو خادعهم) (النساء:١٤٢) فالفعل (يخادعون) يفيد التجدد مرة بعد مرة. أما المسند في قوله: "وهو خادعهم" فهو يفيد الثبوت مطلقاً، فلا يقيد بزمان.

٥-أن يفيد المسند زمنا مخصوصا:

قد يفيد المسند اتصاف الحدث بزمن مخصُوص سواء اسماً أم فعلاً؛ أم قيد بأداة أو فضلة تفيد تخصيصه بهذا الزمن.

كقوله تعالى: **(إِنَّ** مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)(هود:٨١)؛ فجاء المسند (الصبح) ليفيد زمنا مخصوصا بأن وقوع العذاب سيكون صباحا.
يقول أبو السعود: " أي موعدَ عذابِهم وهلاكهم تعليلٌ للأمر بالإسراء والنهيِ عن الالتفات المُشعرِ بالحث على الإسراع... وإنما جُعل ميقاتُ هلاكِهم الصبحَ لأنه وقتُ الدعةِ والراحةِ فيكون حلولُ العذاب حينئذ أفظعَ ولأنه أنسبُ بكون ذلك عبرةً للناظرين".

ومثل قول الشاعر:

وأَشرقَ عن بِشْرٍ هو النور في الضُّحى وصافَى بأَخلاقٍ هي الطَلُّ في الصبحِ

قيد هنا المسند بزمن معين (في الضحى – في الصبح).

ثانيا -بلاغة الحذف:

يرجع حسن العبارة في كثير من التراكيب إلى ما يعمد إليه المتكلم من

حذف لا يغمض به المعنى، ولا يلتوي وراءه القصد، وإنما هو تصرف تصفى به العبارة، ويشتد به أسرها، ويقوى حبكها، ويتكاثر إيحاؤها، ويمتلئ مبناها، وتصير أشبه بالكلام الجيد، وأقرب إلى كلام أهل الطبع، وهو من جهة أخرى دليل على قوة النفس، وقدرة البيان، وصحة الذكاء، وصدق الفطرة.

والحذف –لغة–: الإسقاط وطرح الشيء وقطعه؛ حذف الشيء يحذفه حَذْفاً: قطعه من طرفه؛ وخفّف منه.

والحذف –اصطلاحا–: إسقاط بعض الكلام أو كله لقرينة لفظية أو معنوية تدل عليه.

أ–حذف المسند إليه:

يرى عبد القاهر الجرجاني أن في حذف المسند والمسند إليه أحدهما أو كليهما إثارة جمالية بديعة غير موجودة في ذكرهما؛ وذلك لأمور بلاغية كثيرة؛ تطورت على يد البلاغيين بعده، ومنها في حذف المسند إليه:

١–الاختصار:

قد يُضْمر المتكلم الفاعل، أو الفعل، أو المبتدأ للعلم به، ولدلالة الإعراب عليه كقولنا: أهلاً وسهلاً؛ فالنصب دل على أن المحذوف يقدر بنحو: جئت أهلاً، ووطئت سهلاً؛ وكقول ذي الرُّمَّة:

ديارَ ميَّةَ؛ إذْ ميٌّ تساعفنا ولا يرى مثلها عُجْمٌ ولا عَرَبُ

وقد أنشده بنصب (ديار) فأضمر المسند والمسند إليه، كأنه قال: اذكر ديار مية.

ويطرد حذف المبتدأ في (القطع والاستئناف). وإذا استعمل العرب الكلام على هذه الوجه من البناء "أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ" وتكون

القرينة لفظية أو معنوية سابقة على الخبر الذي حذف المبتدأ فيه. ثم عرض جملة من الشواهد الشعرية منها قول عمر بن أبي ربيعة:

هل تعرفُ اليومَ رسمَ الدارِ والطَّلَلا كما عرفْتَ بجَفْنِ الصَّيْقلِ الخِلَلا

دارٌ لمروةَ إذ أهلي وأهلهم بالكانِسيَّة نَرعى اللهو والغزلا

كأنه قال: تلك دار لمروة، فحذف المسند إليه (تلك) لدلالة ما تقدم عليه في البيت الأول، وهي دلالة لفظية وليست إعرابية.

ومنه قول تعالى: (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ) (الذاريات:٢٩)؛ ففي قوله: عجوز عقيم، أي: أنا عجوز عقيم، وسبب الحذف التركيز على الخبر(المسند)عجوز، فلا حاجة إلى الإشارة إلى ضمير المتكلم؛ ولكن الموقف أوضح الغرابة والعجب من البشرى بالحمل في هذه السن، فحذف المسند إليه لإبراز هذا العجب.

ومن أمثلة الشرط قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (فصلت:٤٦) فالجملة الاسمية الواقعة جواباً للشرط المقترنة بالفاء يحذف المسند إليه فيها، كما هو عليه في الآية، والتقدير: فعمله لنفسه وإساءتها عليها.

٢-الحذف لتيسير الإنكار:

هذا أسلوب بلاغي طريف يتيح للمتكلم أن ينكر كل ما قاله سواء كان مدحاً أم قدحاً. وغالباً يكون المسند إليه قد سبق ذكره، ولكن تشيح عن إعادة ذكره ليتأتى لك أن تقول ما تشاء. فيكون المسند إليه محذوفاً للعلم به من قبل الناس، والسياق يدل عليه؛ ثم يأتي الخبر من جديد بلا مسند إليه؛ كما في قول الأقيشر الأسدي في ابن عم له موسرٍ، سأله فمنعه فشكاه إلى الناس

فلطمه؛ فأنشأ يقول:

سـريعٌ إلـى ابـن العـم يلطِـمُ وجهَهُ وليس إلى داعي النَّدى بسريعِ

حريصٌ على الدنيا، مُضيع لدِيْنِهِ وليس لما في بيتِه بمُضيعِ

فالمسند إليه (المبتدأ) حذف في (سريع، وليس إلى، حريص، مضيع، وليس لما)، فالشاعر مصر على عدم ذكر المسند إليه ليتيسر له إنكار ما قاله إذا دعاه داع له.

٣-صون المسند إليه عن الذكر تعظيماً:

قد تكون منزلة المسند إليه عظيمة، أو أن المتكلم أراد مدحه دون أن يصرح باسمه صوناً له عن لسانه وتعظيماً في الإخبار عن صفاته؛ كما هو في مدح الفرزدق للإمام زين العابدين (رضي الله عنه)؛ من أول القصيدة إلى آخرها؛ ومما ورد في هذا المجال قوله:

سهلُ الخليقة لا تُخْشَى بوادرُهُ يَزِيْنُه اثنان: حُسْنُ الخَلْقِ والشيمُ

حمالُ أثقالِ أقوامٍ إذا افتُدحوا حلْوُ الشمائلِ، تحلو عنده نَعَمُ

أراد: هو سهل الخليقة، هو حمال أثقال، هو حلو الشمائل.

والتحقير: مثل قوله تعالى: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذّبَ بآياته" (الأعراف:٣٧) وقوله تعالى: (مثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون) (البقرة:١٧١) أي: (هم صمٌّ) رفع على الذم؛ لأنهم في تقليدهم لآبائهم كمثل البهائم لا تسمع إلا ظاهر الصوت.

٤-ضيق المقام عن ذكره:

ويتجه المتكلم إلى هذا الغرض بسبب التضجر أو التوجع أو شيء آخر، ولهذا يحذف المسند إليه كقول الشاعر:

قال لي: كيفَ أَنْتَ؟ قلْتُ: عليلُ سهرٌ دائمٌ وحُزْنٌ طويلُ

لم يقل: أنا عليل؛ لضيق صدر البيت عن الإطالة؛ وبسبب ما يعانيه من تباريح الهوى.

٥-المحافظة على الوزن:

قد يؤدي الحذف وظيفة جمالية كما نراه في الحذف الذي يوصل إلى إقامة وزن البيت الشعري؛ والإتيان بقافية متلائمة النسق مع سياق البيت والصدر كقول لبيد بن ربيعة:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن تُردَّ الودائعُ

فلو قيل: أن يرد الناسُ الودائعَ؛ لاختل الوزن والقافية في وقت واحد؛ وصارت القافية منصوبة بدلاً من الرفع، وذلك يذهب جمالها وبهاءها.

٦-المحافظة على السجع:

يحذف المسند إليه أو أي كلام آخر لإقامة السجع، كما عليه قولنا: **من طابت سريرته حُمدت سيرتُهُ.** فقد حذف المسند إليه الحقيقي وهو الفاعل في الجملة الثانية، ولم نقل: حمد الناس سيرته؛ للمحافظة على السجع المستلزم للرفع.

ب-أسلوب حذف المسند:

يذكر المسند في الكلام لكون ذكره هو الأصل، وليس في الكلام ما يقتضي العدول عنه، وذلك كقولك ابتداء: زيد صالح، فتذكر المسند؛

لأنه ليس في الكلام ما يدعو إلى حذفه، وملاحظة مقتضى المقام هنا هي المزية البلاغية.

١-الاحترازُ عن العبثِ:

يترك المتكلم في هذا الغرض مالا ضرورة له؛ وهذا يكسب الكلام بهاءً وجمالاً، ولو ذكر المحذوف لكان ذكره عبثاً لعدم الحاجة إليه، وكل ما ورد من استعمال العرب في ترك المسند يجري هذا المجرى؛ كقوله تعالى: (إن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولهُ) (التوبة:٣) أي ورسوله بريءٌ منهم أيضاً.

ويكثر حذف المسند (الخبر) في النفي؛ كقول الشمردل بن شريك الليثي:

لهفي عليك للهفةٍ من خائفٍ يبغي جوارك حين ليس مُجيرُ

أي: ليس له مجير. ويحذف الخبر مع كان بعد (إن)؛ كقولنا: الناس يجزون بأعمالهم إن خيرٌ فخير؛ أي إن كان في عملهم خير فخير. فالسياق يكشف عن المحذوف؛ وقد يكون استعمال المحذوف شائعاً في الأمثال لاختصارها كقول العرب: رميةُ من غير رامٍ، أي هذه رمية.

٢ -ضيقُ المقامِ عن ذكر المسند:

قد يستغني الكلام عن المسند لأمور كثيرة؛ للاختلاف في العامل مع قرب جواره، أو لعلم المخاطب به. فالمقام يقتضي الحذف وعدم الإطالة؛ لأنه لا ضرورة لها؛ ويضيق المقام عنها فتحذف؛ ويكون في الشعر اشد ضرورة لإقامة الوزن كقول الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلفُ

أي: نحنُ بما عندنا راضونَ، وأنتَ بما عندك راضٍ؛ فحذف خبر المبتدأ (نحن)، وعليه قول ضابئ بن الحارث البرجمي:

فَمنْ يكُ أمسى بالمدينةِ رحلُهُ فإنِّي وقَيَّاراً بِها لغَريبُ

أي فإني لغريب، وقيار غريب أيضا، وقيار: اسم فرسه، فحذف المسند؛ لأن الموقف موقف شكوى وتحسر يناسبه الحذف لا البسط.

٣ –اتباعُ الاستعمالِ الوارد عن العربِ، قال تعالى: (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) (سبأ:٣١)، أي: لولا أنتم موجودونَ.

جرى العرب على حذف المسند ولاسيما الخبر في عدد من الأساليب اللغوية والبلاغية، وحذف المسند(الخبر) وجوبا بعد الشرط في (لولا–لوما).

الأسلوب الخبري والإنشائي

الكلام قسمان: خبر وإنشاء.

الخبر: ما يصح أن يوصف قائله بالصدق، أوالكذب؛ فإذا طابق الواقع كان صادقا، وإذا خالفه كان كاذبا.

أما الإنشاء: فلا يوصف قائله بالصدق أو الكذب.

أولا: الأسلوب الخبري:

هو ما يحتمل الصدق أو الكذب لذاته.

ولكل خبر تتلفظ به نسبتان:

١-نسبة تفهم من الخبر، ويدل عليها الكلام، وتسمى النسبة الكلامية.

٢-نسبة أخرى تعرف من الخارج والواقع بقطع النظر عن الخبر، وتسمى بالنسبة الخارجية، فإن طابقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية في الإيجاب أو في النفي كان الكلام صدقا، وإلا كان كذبا. مثلا إذا قلنا: "الشمس طالعة" وكانت هي في الواقع والخارج كذلك سمي الكلام صدقا، وإن لم تكن طالعة سمي الكلام كذبا، فصدق الخبر إذًا مطابقته الواقع والخارج، وكذبه عدمها.

يلقى الخبر لغرضين:

١-إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة، ويسمى فائدة الخبر، فتقول: محمد مجتهد لمن لا يعرف ذلك.

٢-إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى لازم الفائدة، تقول لصديقك: إن تقديرك مرتفع هذا العام.

ومن الأغراض البلاغية للخبر: النصح، المدح، الفخر، التهديد، التحسر،

السخرية، التحذير، الاستعطاف، والتحدي والتعجيز.

ومنها:

– إظهار الأسف والحسرة نحو: على شيء محبوب؛ كقوله تعالى: **(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)** (آل عمران: ٣٦).

على شيء مضى؛ كقول الشاعر:

ذهب الشباب فما له من عودة وأتى المشيب فأين منه المهرب

وكقول الآخر:

أصبت بسادة كانوا عيونا بهم نسقي إذا انقطع الغمام

– إظهار الضعف نحو: كقوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: **(اَلَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي)**(مريم:٤).

وكقول الشاعر:

قَدْ كُنْتَ عُدَّتِيَ الَّتِي أَسْطُو بِها وَيَدِي إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وسَاعِدِي

– الاسترحام والاستعطاف نحو: كقول أبي العتاهية:

إِلَهي لا تُعَـذِّبني فَإِنّي مُقِــــرٌّ بِالَّذي قَد كانَ مِــنّي
وَما لي حيلَةٌ إِلا رَجائي بَعَفوُكَ إِن عَفَوتَ وَحُسنُ ظَنّي

– الفخر: قول أمية بن أبي الصلت:

أَنَا الْقَائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وإِنَّما يُدافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

الذِّمارُ: ما تجب حمايته، كالأهل والعِرْض، والأحْسَاب: مَا يَعُدُّهُ المرءُ من مَناقبِ وشَرَفِ الآباء.

– المدح والثناء: قول كعب بن زهير :

– الوعظ والإرشاد نحو قوله تعالى :(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) (الرحمن: ٢٦).

وقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " المُسْلِمُ مِنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لسانه ويده "

– إظهار الفرح: كقولِ أَهْلِ الجنَّةِ فرحين بما آتاهم الله من فضله، قال تعالى :

(وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين) (الزمر: ٧٤).

– الحث على العمل والحركة لمصلحة؛ كقوله تعالى: (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين)(الطور: ٢١)

– التحذير: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ" سنن ابن ماجة وأبي داود

– التوبيخ: كقوله تعالى عن جواب المؤمنين للمنافقين في موقفِ الحشر: (يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بلى ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وارتبتم وَغرَّتْكُمُ الأماني حتى جَآءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُم بالله الغرور) (الحديد: ١٤).

خروج الخبر عن أصل معناه للدلالة على الأمر والنهي والدّعاء:

(١) فقد يُرَادُ من الخبر في الجملة الخبريّةِ الأمْرُ، ومِنْهُ:

قال تعالى: (والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة) (البقرة: ٢٣٣).

أي: وليرضع الوالدات أولادهن.

(٢) وقد يُراد من الخبر في الجملة الخبريَّة النهيُ، ومنه:

قال تعالى: (الحج أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج) (البقرة: ١٩٧).

أي: فمن فرض فيهن الحج فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل في الحج. وقد يراد من الخبر في الجملة الخبريّة الدعاء.

قولُ يوسف عليه السلام لأخوته يد عو لهم بالمغفرة، قال تعالى :(قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين) (يوسف: ٩٢)

يغفر الله لكم: جملة خبرية أريد منها الدعاء لهم بأن يغفر الله لهم.

طريقة إلقاء الخبر:

ركب الفيلسوف الكندي إلى أبي العباس المبرد، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ويقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فالأول إخباره عن قيامه، والثاني جواب عن سؤال سائل، والثالث جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني، فما أحار الفيلسوف جوابا.

فقد فطن العرب إلى أن لكل مقام مقال ، فما يقال في الأولى لا يقال في الثانية وما يصلح فيه الإيجاز لا يصلح فيه البسط والإطناب.

وللمخاطب ثلاث حالات:

١- خالي الذهن من الحكم، ومن التردد فيه فيلقى إليه الكلام بسيطا سهلا من غير أدوات التوكيد يوافق حال المخاطب الذي يسلم بالخبر ولا يجادل فيه دون تردد أو شك، ويسمى هذا الضرب ابتدائيا، نحو: محمد مجتهد.

٢- المتردد في ثبوت الحكم وعدمه بألا يترجح عنده هذا على ذلك، وحينئذ يحسن تقوية الحكم بمؤكد ليزيل ذلك التردد، ويسمى هذا الضرب طلبيا، نحو : إن محمدا مجتهد.

٣- المنكر للحكم، وهذا يجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره، قوة وضعفا، ذاك أن المتكلم أحوج ما يكون إلى الزيادة في تثبيت خبره إذا كان هناك من ينكره ويدفع صحته، فهو حينئذ يبالغ في تأكيده حتى يزيل إنكاره، يدل على ذلك قصة الرسل الثلاثة الذين أرسلهم إلى أهل قرية يقال: إنها إنطاكية، ويقال: إن الرسل الثلاثة هم من الرسل السبعين الذين أرسلهم عيسى عليه السلام إلى الأقاليم، لنشر دين الله في الأرض.

فقال الله عز وجل فيها:

(واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية إِذْ جَآءَهَا المرسلون o إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فقالوا إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ o قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمان مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ oقَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ o وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ البلاغ المبين) (يس: ١٣ – ١٧) .

ففي ابتداء الأمر عرض الرسولان على أصحاب هذه القرية أنهما رسولان يبلغان تعاليم الدين، فكان بيانهما من قبيل الإخبار الابتدائي غير المقرون بمؤكدات لفظية.

فلما كذبهما القوم عززهما الله برسول ثالث، وقالوا لهم: (إنآ إليكم مرسلون) فجاء الإخبار مؤكدا تأكيدا متوسطا، لأن إنكار القوم كان في بدايته.

والتأكيد في هذه الجملة الخبرية قد جاء بحرف التأكيد "إن" ويمكن أن نفهم من تقديم (إليكم) على عامله (مرسلون) تأكيدا آخر، لأن فيه معنى القصر، أو زيادة الاهتمام، وكلاهما يفيد تأكيدا، والمؤكد الثالث كون

الجملة جملة إسمية.

ولما أصر القوم على تكذيب الرسل الثلاثة، زاد الرسل جملتهم الخبرية تأكيدا، فقالوا: (ربنا يعلم إنآ إليكم لمرسلون) ، ونحو قولنا : إن محمدا لمجتهد ، ويسمى هذا الضرب إنكاريا.

وقد يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ولذلك صور كثيرة، منها:

١–تنزيل غير السائل منزلة السائل، فيؤكد له الكلام إذا تقدم ما يشير إلى حكم الخبر فتستشرف نفسه وتتطلع إليه استشراف الطالب المتردد، نحو قوله تعالى: (وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) فحين تقدم قوله: واصنع الفلك بأعيننا، وقوله: ولا تخاطبني، صار المقام مقام تردد بأن القوم هل حكم عليهم بالإغراق؟ فقيل: إنهم مغرقون.

٢–تنزيل من لا ينكر الخبر منزلة من ينكره تهكما به إذا لاح عليه شيء من أمارات الإنكار؛ كقوله تعالى :(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) (المؤمنون:١٥)

٣–تنزيل المنكر كأنه غير منكر، فلا يعتد بإنكاره؛ لأن أمامه من الدلائل الساطعة والبراهين القاطعة، ما فيه مقنع له لو أزال تلك الغشاوة عن عينيه والتفت إلى ما يحيط به، وعليه قوله تعالى خطابا لمنكري الوحدانية: (وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ) إذ العقل قاض بأن تعدد الآلهة يقتضي تخالف أفعالهم لاختلاف علومهم وإرادتهم، وكل منهم له التصرف في السموات والأرض، والقدرة على إيجاد الممكنات فتتضارب أفعالهم ويفسد نظام الكون، والمشاهد أنه على أتم نظام، فهو الواحد لا شريك له.

ثانيا: الأسلوب الإنشائي:

الإنشاء لغة: الإيجاد.

وفي الاصطلاح: كلامٌ لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته، نحو اغفر – وارحم، ولا تكذب، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب.

الانشاء نوعان:

إنشاء طلبي، وإنشاء غير طلبي.

الإنشاء غير الطلبي: ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ويكون: بصيغ المدح، والذم، وصيغ العقود، والقسم، والتعجب والرجاء، وكذا يكون بربَّ ولعلَّ، وكم الخبرية.

وعلماء البلاغة لا يبحثون عن الإنشاء غير الطلبي، لأن أكثر صيغه في الأصل أخبارٌ نقلت إلى الإنشاء.

الإنشاء الطلبي: هو الذي يستدعى مطلوباً غير حاصلٍ في اعتقاد المتكلم وقت الطلب.

وأنواعه هي، الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

أولا : الأمر:

الأمر: هو طلب حصول الفعل من المخاطب: على وجه الاستعلاء مع الالزام ، وله أربع صيغ:

(١) فعل الأمر – كقوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف : ١٩٩)

(٢) والمضارع المجزوم بلام الأمر – كقوله تعالى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ) (الطلاق :٧)

(٣) واسم فعل الأمر، كقوله تعالى :(عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (المائدة : ١٠٥)

(٤) والمصدر النائب على فعل الأمر نحو:

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمُستاع.

وقد تخرج صيغ الأمر عن معناه الأصلي إلى معان أخرى: تفهم من سياق الكلام :

– كالدعاء: في قوله تعالى : (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان:٧٤)

– والالتماس: كقول الشاعر:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتابُ

– والإرشاد : كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) (البقرة :٢٨٢) .

– التعجيز : كقوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(القصص:٤٩)

–الإباحة : كقول الشاعر:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

– التسوية : كقوله تعالى:(أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) (التوبة:٥٣)

– الإكرام – كقوله تعالى : (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)(الحاقة:٢٤)

– والإهانة : كقول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

-التمني: كقول الشاعر :

ألاَ أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل

الاعتبار : كقوله تعالى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)(النمل:٦٩)

ثانيا : النهي :

هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وليس له إلا صيغة واحدة، هي: المضارع، مع لا الناهية، نحو: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) (١١٣هود).

ويستعمل النهي في معان أخرى تفهم بالقرائن من سياق الكلام ، منها:

- الدعاء: كقوله تعالى : (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(المؤمنون :٩٤)

- الإرشاد: كقول الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

- التوبيخ: نحو: قول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

- التسلية والصبر: كقول الشاعر :

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا من بقاء

- التيئيس: كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التحريم :٧)

- التمني، كقول الخنساء:

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ثالثا: الاستفهام

طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وأدواته " الهمزة " و"هل".

-الهمزة:

يطلب بالهمزة أحد أمرين:

(أ) التصور، وهو إدراك المفرد، وفي هذه الحال تأتي الهمزة متلوة بالمسئول عنه ويذكر له في الغالب معادل بعد أم.

(ب) التصديق وهو إدراك النسبة، وفي هذه الحال يمتنع ذكر المعادل.

نقول:

أأنت الناجح أم أخوك؟

حيث أداة الاستفهام هي الهمزة تجد أن المتكلم هنا يعرف النسبة التي تضمنها الكَلامُ، ولكَنه يتردد بين شيئين ويطلب تعيين أحدهما فهو يعْرف أن النجاح واقع فعلا وأنه منسوب إلى واحد من اثنين، المخاطب أو أخيه، فهو لذلك لا يطلب معرفة النسبة، وإنما يطلب معرفة مفرد، وينتظر من المسئول أن يعين له ذلك المفرد ويدل عليه، ولذلك يكون جوابه بالتعيين فيقال له: "أخي"، مثلاً، فالهمزة هنا للتصور.

وفي قولنا: أتسير السحب؟

المتكلم هنا متردد بين ثبوت النسبة ونفيها، فهو يجهلها ولذلك يسأل عنها ويطلب معرفتها، فهنا يتردد المتكلم بين ثبوت السير للسحب ونفيه عنه ولذلك يطلب معرفة هذه النسبة. ويكون جوابه بنعم إن أريد الإثبات، وبلا إن أريد النفي، وإذا تأملت الأمثلة هنا لم تجد للمسئول عنه وهو النسبة معادلاً، فالهمزة هنا للتصديق.

لـذلك يتبـين أن للهمـزة اسـتعمالين: الأول: إذا طلـب بهـا معرفـة مفـرد، وتسمَّى معرفة المفرد تصورا والثاني: إذا طلب بها معرفة نسبة، وتسمَّى معرفة النسبة تصديقا.

هل:

يطلب بهل التصديق ليس غير، ويمتنع معها ذكر المعادل.

كما في قولنا: هل ينجح الكسول؟

فالمتكلم متردد في معرفة النسبة هل هي الإثبات أو النفي؛ لذلك تكون الإجابة بنعم في الإثبات، ولا في النفي.

للاستفهام أدوات أخرى غير الهمزة وهل، وهي: من، ما، متى، أيان، كيف، أين، أنى، كم.

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصلية لمعان أخرى تستفاد من سياق الكلام كالنفي، والإنكار، والتقرير والتوبيخ والتعظيم، والتحقير والتعجب، والتسوية والتحسر والتشويق.

– النفي: يقول البحتري :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها؟

الشاعر هنا لا يسأل عن شيء، وإنما يريد أن يقول ما الدهر إلا شدة سرعان ما تنجلي.

والغمرة الشدة وانجلاؤها: زوالها، ووشيكا سريعا.

يقول المتنبي:

أتلتمس الأعداء بعد الذي رأت قيام دليل أو وضوح بيان

ينكر الشاعر على الأعداء ارتيابهم قوة ممدوحه والتماسهم البراهين على

انتصاراته بعد رؤيتهم له وهو يقهر أعداءه.

التقرير : يقول البحتري :

أَلَسْتَ أعَمّهُمْ جُوداً، وأزْكَا هُمُ عُوداً، وأمضَاهُمْ حُسَامَا

فالشاعر لا يأل وإنما يقر لممدوحه الجود والقوة والشجاعة على أعدائه.

–التحسر: يقول المتنبي في الرثاء:

مَن للمَحافِلِ وَالجَحافِلِ وَالسُّرَى فَقَدَتْ بفَقْدِكَ نَيِّراً لا يَطْلُعُ

وَمَنِ اتخذتَ على الضّيوفِ خَليفَةً ضَاعُوا وَمِثْلُكَ لا يكادُ يُضَيِّعُ

المحافل: المجامع، والجحافل: الجيوش، والسرى: مشي الليل، ويريد به الزحف على الأعداء.

التوبيخ والتقريع: يقول شوقي:

إلامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمُ إلا ما؟ وهَذِه الضَّجةُ الكُبرَى عَلامَا

يلوم الشاعر هؤلاء على تماديهم في الشقاق واستمرارهم في التخاذل والتنافر والضجيج والصخب بلا فائدة.

– التعظيم: يقول الشاعر

أضاعوني وأيَّ فَتى أَضاعوا؟ لِيوْم كريهَة وسداد ثَغْر

يريد الشاعر أن يبين مكانته في قبيلته وقت الحروب والشدائد.

وقال الشاعر:

فَدَعِ الوَعيدَ فما وَعيدُكَ ضائري أطَنينُ أجْنِحَةِ الذُّبابِ يَضيرُ

التعجب: يقول أبو تمام :

مَا للخُطوبِ طَغَتْ عليَّ كأنَّها جهلتْ بأنَّ نداكَ بالمرصادِ

رابعا: النداء:

والنداء: هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة أدعو، والغاية منه أن يصغى من تناديه إلى أمرٍ مهم.

وأدوات النداء ثمان: "أ – أي – يا – آ – آي – أيا – هيا – وا".

– أما "أ –أي" فلنداء القريب، وأما "أيا –هيا –آ" فلنداء البعيد، وأما "يا" فالراجح أنها موضوعة لنداء البعيد حقيقة أو حكما، وقيل مشتركة، وتستعمل "وا" للندبة، وهي التي ينادى بها المندوب المتفجع عليه، وتستعمل في الندبة أيضا "يا" عند أمن الالتباس بالنداء الحقيقي.

والأصل في نداء القريب أن ينادى بالهمزة أو أي. وفي نداء البعيد أَن ينادَى بغيرهما من باقية الأدوات، غير أن هناك أسباباً بلاغية تدعو إلى مخالفة هذا الأصل، ومثل ذلك:

–تنزيل البعيد منزل القريب، لقرب منزلته:

يقول أبو الطيب المتنبي:

أَمَالِكَ رِقّي ومَنْ شَأنُهُ هِبا تُ اللُّجَينِ وعِتْقُ العَبيدِ

دَعَوْتُكَ عِندَ انْقِطاعِ الرّجَا ءِ والمَوْتُ مني كحَبل الوَريدِ

أي: يا من يملك عبوديتي ويا من شأنه أن يهب الفضة ويعتق العبيد، دعوتك عند انقطاع الرجاء من غيرك وقرب الموت كحبل الوريد وهو عرق في العنق، فالشاعر أراد أن يبين أن المنادَى على الرغم من بعده في المكان، قريب من قلبه مستحضر في ذهنه لا يغيب عن باله، فنزله منزل القريب وناداه بالهمزة موضحا هذا القرب من قلبه.

– تنزيل القريب منزلة البعيد لعلو منزلته: قال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ

لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (يوسف:٤)

وقال تعالى: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (القصص:٢٦)

نزل القريب منزلة البعيد وهذا واضح من استعمال حرف النداء (يا)، إظهارا لعلو المنزلة ورفعة المكانة.

– تنزيل القريب منزلة البعيد لغفلته وانصرافه عن الصواب:

يقول أبو العتاهية:

أيا منْ عاشَ في الدنيا طويلاً وأفنَى العمرَ في قيلٍ وقالِ

وأتعبَ نفسَه فيما سيفنَى يجمَّعُ منْ حرامٍ أو حلالِ

هبِ الدنيا تقادُ إليكَ عفواً أليسَ مصيرُ ذلك للزوالِ؟

فائدة: وكثيرا ما يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار.

الأمر: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة:٢١)

النهي: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة:١٠٤)

الاستفهام: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (الصف:١٠)

الإخبار: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥)

يقول الزمخشري: "كثر في القرآن النداء بـ (يا أيها) دون غيرها لأن فيها

أوجها من التأكيد، وأسبابا من المبالغة، منها:

– ما في "يا" من التأكيد والتنبيه.

– ما في "ها" من التنبيه.

– وما في التدرج من الإبهام في "أي" إلى التوضيح.

وقد يخرج النداء عن المعنى الأصلي الموضوع له، فيستعمل في أغراض حسب السياق والقرائن، كأن يستعمل في الزجر واللوم، أو التحسر والتأسف والتفجع والندم أو الندبة، أو الإغراء، أو الاستغاثة، أو اليأس وانقطاع الرجاء، أو التمني، أو التذكر، أو التضجر، أو الاختصاص، أو التعجب، وغير ذلك.

– التحسر: قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً) (الفرقان:٢٧)

– التمني: قال تعالى حكاية عن قوم قارون ومن حوله :(ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:٧٩)

– التعجب: قال تعالى :(قَالَتْ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (هود:٧٢)

ويقول أبو العلاء المعرّي:

فَوَا عَجَباً كَمْ يَدَّعِي الْفَضْلَ نَاقِصٌ وَوَا أَسَفاً كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلُ

– الرثاء: قول الشاعر:

أَيَا مَنَازِلَ سَلْمَى أَيْنَ سَلْمَاكِ مِنْ أَجْلِ هَذَا بَكَيْنَاهَا بَكَيْنَاكِ

–التضجر: قول الشاعر:

أَلاَ أَيُّها اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

–اليأس وانقطاع الرجاء: قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ

فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الأنعام:٢٧)

خامسا: التمني:

التمني طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله، إما لكونه مستحيلا، وإما لكونه ممكنا غير مطموع في نيله.

– إما لكونه مستحيلا، كقوله:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

– وإما لكونه ممكنا غير مطموع في نيله، كقول المعسر: "ليت لي ألف دينار".

ويكون التمني بـ (ليت)، وقد يتمنى بهل ولو، ولعل، وإذا كان الأمر المحبوب مما يرجى حصوله كان طلبه ترجيا، ويعبر فيه بلعل أو عسى، وقد تستعمل فيه أداة التمني (ليت).

قال تعالى: (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ *بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) (يس:٢٦-٢٧)

وقال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (الزخرف:٣٨)

ففي الأولى أراد من التمني أن عرف قومه منزلته من الجنة فيسيرون على طريقه من اتباع المرسلين وعبادة الله الذي خلقهم وهو الضار والنافع لا غيره، وهنا نجد استحالة حدوث معرفتهم بغفران الله لأنه في مكان لا يستطيعون الوصول إليه ورؤية مقامه فيه.

وفي الثانية كان من الممكن حدوث ذلك في الدنيا بأن يترك هذا المتمني شيطانه ولا يتّبعه، ولكنه عرض على الله فأصبح هذا الأمر بعيد المنال.

أما إذا كان الأمر المحبوب مما يرجى حصوله كان طلبه ترجيا ويعبر فيه بـ (لعل) أو (عسى)؛ كقوله تعالى: (لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (الطلاق:١)، وقال تعالى: (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ) (المائد:٥٢)

وقول الشاعر:

عَسى اللَيالي الَّتي أَضنَت بِفُرقَتنا جِسمي سَتَجمَعُنِي يَوماً وَتَجمَعُهُ

وقد تستعمل ليت في الترجي، يقول المتنبي:

فَيا لَيتَ ما بَيْني وبَينَ أحِبّتي مِنَ البُعْدِ ما بَيني وبَينَ المَصائِبِ

فهو لبعد أحبته عنه يرجو أن يكون بينه وبينهم كمثل ما بينه وبين المصائب، وذلك لقرب المصائب الشديد منه.

وقد يحدث التمني بهل ولعل لإظهار المتمنى المستحيل في صورة الممكن

التمني بـ هل : قال تعالى : (هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)(الشورى:٤٤)

فهم – أهل النار –يعرفون أنه لا مرد لهم.

وقال ذو الرمة:

أَمَنزِلَتَي مِيِّ سَلامٌ عَلَيكُما هَلِ الأَزمُنُ اللائي مَضَينَ رَواجِعُ

التمني بـ لعل:

قال تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى*إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) (طه:٩-١٠)

فاحترز موسى عليه السلام عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول إني آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به.

وقال تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ()

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون ٩٩-١٠٠)

ونحو قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

وتستعمل (لو) للتمنى إذا كان الأمر مستحيلا حدوثه:

قال تعالى: (فلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء:١٠٢)، ويتمنى بها إشعارا بامتناع التمني وأبرازه في صورة ما لا يوجد، والدليل على أنها للتمني نصب جوابها.

وقال مسلم بن الوليد صريع الغواني:

واهاً لأيّام الصِّبا وزمانِه لو كان أسْعفَ بالمُقام قليلاَ

سَلْ عيش دهرٍ قد مَضتْ أيامُه هل يَسْتطيع إلى الرُّجوع سَبيلا

يتمنى الشاعر لو أسعفه الصبا فأقام معه قليلا، وذلك بعد أن أنقضت أيام صباه وهذا أمر يمتنع حدوثه.

الإطناب والإيجاز

كانت العرب توجز تارة وتطنب تارة. ولكل من النوعين مكان حسب الموقف، ورب كلام يكون الإطناب فيه أبلغ من الإيجاز، وتصير البساطة له كالعلم والطراز، وسئل أبو عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيلُ؟ قال: نعمْ، ليسمع منها. وسئل: هل كانت توجز؟ قال: نعم، ليحفظ عنها.

وروي أن جعفر بن يحيى البرمكي "أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول" قال:" متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عِيًّا، ومتى كانت الكفاية بالإكثار كان الإيجاز تقصيرا".

وقال أحد الشعراء يثني على خطباء "إياد":

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خشية الرقباء

أي: يخطبون تارة خطبا طوالا، إذا كانت حال المخاطبين تقتضي الإطالة، ويوجزون خطبهم تارة أخرى إيجازا يشبه وحي الملاحظ. ومن المعروف أن الناس قد يتفاهمون عن طريق اللحظ، وإشاراته خشية من يراقبهم.

أولا: الإطناب:

الإطناب مصدر أطنب فى كلامه إطنابا، إذا بالغ فيه وطوّل ذيوله لإفادة المعانى، واشتقاقه من قولهم: أطنب بالمكان إذا طال مقامه فيه، وفرس مطنب إذا طال متنه، ومن أجل ذلك سمى حبل الخيمة طنبا لطوله، وهو نقيض الإيجاز فى الكلام.

والإطناب اصطلاحا: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن المتعارف؛ لفائدة تقويته وتوكيده.

ويكون الإطناب غير مفيد؛ فيكون إما تطويلا أو حشوا:

أما التطويل: إن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة؛ وكقول عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فقوله (أقوى وأقفر) لفظان دالان على معنى واحد.

وكقول الحطيئة:

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

فجمع بين النأي والبعد لضرب من التأكيد، والنأي والبعد واحد.

وأما الحشو: هو أن يكون الزائد غير المفيد فى الكلام متعينا بلفظه، كلمة فأكثر.

نحو قول أبي العيال الهذلي:

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصب

فجاء ذكر الرأس حشوا غير مفسد، لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس، ولكن عد هذا حشوا وفضلا زائدا.

ومثله قول زهير:

وأعلمُ علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي

التكرير المحمود:

ما ورد فى السنة الشريفة كقوله صلّى الله عليه وسلّم فى وصف يوسف الصديق عليه السلام (الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يعنى أنه نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى، فقد تنوسخ من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام الطاهرة، فهذا تكرير بالغ دال على نهاية الشرف، وإعظام المنزلة، ورفع الرتبة عند الله.

التكرير المعيب:

ما قاله أبو نواس:

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما ويوم للترحل خامس

والمراد من هذا أنه أقام بها أربعة أيام، وهذا تكرير ليس وراءه كبير فائدة ولا اختص بحلاوة.

وقول المتنبي:

عَظُمتَ فَلَمّا لَم تُكَلَّم مَهابَةً تَواضَعتَ وَهوَ العُظمُ عُظماً عَنِ العُظمِ

فهذا وما شاكله ليس من التكرير الحسن.

من دواعي الإطناب:

(١) **ذكر الخاص بعد العام:** نحو قوله تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) (البقرة:٢٣٨)؛ وفائدته التنبيه على مزية: وفضلٍ في الخاص.

(٢) **ذكر العام بعد الخاص:** نحو قوله تعالى :(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) (نوح:٢٨)

جعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والده، ثم عمم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوهم والمؤمنات من أزواجهم وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه، ثم عاد بالدعاء على الكفرة بأن يحرمهم الله النجاح وهو على حد قوله في موضع من السور:(وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا) (نوح: ٢٤)، فجاء الاهتمام بالخاص بذكره مرتين؛ مرة منفردا، أخرى مع العام.

(٣) **التفصيل بعد الإجمال،** لتقرير المعنى في ذهن السامع بذكره مرتين، مرة إجمالا، ومرّة تفصيلا؛ كقوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ

مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) (الحجر:٦٦)؛ فقوله (أن دابر هؤلاء) توضيح لقوله: (الأمر) المبهم وفائدة التوضيح تهويل أمر العذاب.

(٤) **التوشيع:** وهو أن يؤتى في آخر الكلام بمثنى مفسر بمفردين نحو قوله صلّى الله عليه وسلّم: "الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك"، وفائدته توضيح الغامض.

(٥) **التكرير:** وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر – لأغراض الأوّل –التأكيد وتقرير المعنى في النفس كقوله تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح:٥ ، ٦) وجيء بلفظ مع لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية ولتقوية القلوب، وعليه قوله صلى الله عليه وسلم :"لن يغلب عسر يسرين"؛ لأن العسر أعيد معرفاً؛ فكان واحداً؛ لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى، واليسر أعيد نكرة والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى؛ فصار المعنى إن مع العسر يسرين.

وتمكين المعنى من النفس، نحو قول عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم

يدعون عنتر والسيوف كأنها لمع البوراق في سحاب مظلم

الثاني: التحسر: نحو قول الحسين بن مطير الأسدي:

فيا قَبْرَ مَعَنٍ كنتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ من الأرضِ خُطّتْ لِلسَّماحَةِ مَضْجَعا

ويا قَبْرَ مَعَنٍ كيفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وقد كان منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعا

الثاني: طول الفصل: نحو قول سحبان بن زفر، وكانت العرب تقول أبلغ من سحبان:

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت أما بعد أني خطيبها

فأعاد (أني) لطول الفصل، ولجذب انتباه السامع بالتكرير.

الثالث –التلذذ بذكر من يحب، نحو قول مروان بن أبي حفصة

سقى الله نجداً والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القُرب والبعد

الرابع : التلذذ بالحديث مع الله : في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:" وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)(طه: ١٧، ١٨)

(٦) **الاعتراض:** وهو أن يؤتى في اثناء الكلام، أو بين كلامين متَّصلين في المعنى، بجملة معترضة: أو أكثر، لا محل لها من الاعراب؛ لأغراض منها:

الرد على المخاطب: نحو قول النابغة الجعدي:

أَلا زَعَمَت بَنُو كَعبٍ بأَنّي –أَلا كَذَبُوا – كَبِيرُ السِنِّ فاني

وقول الشاعر:

لو أنّ الباخلين وأنتِ منهم رأوك تعلّمُوا منك المطالا

والتّنزيه كما في قوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)(النحل:٥٧)

وفي قوله : "سبحانه" اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور، فأفاد تنزيه نفسه عما نسبه إليه مشركو العرب، في قولهم الملائكة بنات الله.

وزيادة التأكيد : كقوله تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)(لقمان: ١٤)؛ فقوله:"حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين" اعتراض بين المفسر والمفسر لأنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق في

حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيراً بحقها العظيم مفرداً.

والتهويل : نحو (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)(الواقعة: ٧٦)؛ فقوله : "لو تعلمون" لتعظيم قيمة ذلك القسم.

(٧) **الإيغال:** وهو ختم الكلام بما يُفيد نُكتة، يتم المعنى بدونها؛ كالمبالغة: في قوله تعالى (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(النور:٣٨).

فقوله: "يرزق من يشاء" كاف، لكن أعقبه تعالى بقوله: "بغير حساب".

ونحو قول الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نارُ

(٨) **التذييلُ:** وهو تعقيب جملة بجملة أخرى مستقلّة، تشتمل على معناها، تأكيداً لمنطوق الأولى، أو لمفهومها.

نحو: قوله تعالى (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (سبأ:١٧)

(٩) **الاحتراس أو(التكميل):** وهو أن يُؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود، بما يدفع ذلك الإيهام.

كقول طرفة بن العبد:

فَسَقى ديارَك غير مُفسدها صوبُ الرَّبيع وَديمَةٌ تهمى

فقوله: غير مفسدها: للاحتراس.

وكقول أعرابية لرجل (أذلَّ الله كل عدوّ لك إلا نفسك) .

(١٠) **التَّتميم:** وهو زيادةُ فضلة، كمفعول أو حال أو تمييز أو جار ومجرور، توجد في المعنى حُسنا بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلا كقول ابن المعتز يصف فرساً:

صَببنا عليها ظالمين سياَطنا فطارت بها أيد سراعٌ وأرجلُ

ومن فوائده أنه يثبت المعاني في الذهن ويكسبُها رونقاً وجمالاً.

واستحسن الأدباء "الإطناب" وبسط الكلام في الإصلاح ين المتخاصمين، وفي الحاجة إلى الإقناع في الأمور الفكرية العميقة، والوعظ والإرشاد والتعليم، وفي الخطب الحماسية والحربية، وكتابة التاريخ وتدوين الحوادث.

ثانيا: الإيجاز

الإيجاز لغة: اختصار الكلام وتقليل ألفاظه مع بلاغته، يقال لغة: أوجز الكلام إذا جعله قصيرا ينتهي من نطقه بسرعة.

ويقال: كلام وجيز، أي: خفيف قصير. ويقال: أوجز في صلاته إذا خففها ولم يطل فيها.

فالمادة تدور حول التخفيف والتقصير، وفي الحديث أن رجلا قال للرسول صلى الله عليه وسلم: عظني وأوجز، أي: قل لي كلاما خفيفا قصيرا أحفظه عنك فيه موعظة لي.

والإيجاز هو صياغة كلام قصير يدل على معنى كثير واف بالمقصود، فإذا لم يكن الكلام وافيا بالدلالة على المقصود كان إخلالا؛ كقول الحارث بن حلزة اليشكري:

والعيش خير في ظلال النو ك ممن عاش كدا

أي: العيش الناعم السعيد في ظلال الحمق خير من العيش الشقي في ظلال العقل.

وقول عروة بن الورد بن زيد العبسي:

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

قالوا: أراد إذ يقتلون نفوسهم في السلم من غير حرب، فحذف عبارة:

"في السلم" وهذا من الإخلال بالمعنى، مما يوقع السامع في صعوبة فهم المعنى.

ومن الإيجاز الرشيق قوله صلّى الله عليه وسلّم فى طلب الرزق: (إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله).

واستحسن الأدباء "الإيجاز" في كتابات الملوك والأمراء، وفى الوعد والوعيد، والشكر على النعم التي تهدى، والاستعطاف والشكوى والاعتذار، والعتاب، ومخاطبة الأذكياء، وفي مواطن الخوف فيكون الرمز لإخفاء المقاصد عن الرقباء.

والإيجاز نوعان: إيجاز قصر، إيجاز حذف.

أولا: إيجاز القصر:

ويكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف؛ فهو تكثير المعنى، وتقليل اللفظ.

كقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ١٧٩) "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"، فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه؛ لأن المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَل قُتِل كان ذلك داعيا له قويا إلى ألا يقدم على القتال، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان ارتفاع القتل حياة لهم، وفضله على ما كان عندهم أو جز كلام في هذا المعنى وهو قولهم: القتل أنفى للقتل من وجوه:

-وحروف الآية: "في القصاص حياة" أقل من عبارة العرب: "القتل أنفى للقتل".

- ذكرت الآية "القصاص" فعمت كل ما تقابل به الجناية على الأنفس فما دون الأنفس من عقوبة مماثلة، وحددت الأمر بأن يكون عقوبة لعمل

سبق، ودلت على مبدأ العدل، أما عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيده بأن يكون عقوبة، ولم تشر إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

– نصت الآية على ثبوت الحياة بتقرير حكم القصاص، أما عبارة العرب فذكرت نفي القتل، وهو لا يدل على المعنى الذي يدل عليه لفظ "حياة".

–خلت الآية من عيب التكرار، بخلاف قول العرب.

– الآية صريحة في دلالتها على معانيها، مستغنية بكلماتها عن تقدير محذوف، بخلاف عبارة "العرب" فهي تحتاج إلى عدة تقديرات حتى يستقيم معناها، إذ لا بد فيها من ثلاثة تقديرات، وهي كما يلي:"القتل" قصاصا "أنفى من تركه "للقتل" عمدا وعدوانا.

– في الآية سلاسة، لاشتمالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق.أما عبارة "العرب" ففيها تكرير حرف القاف المتحرك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق.

– في الآية من فنون البديع: "الطباق" بين لفظتي: القصاص والحياة؛ مما يبرز المعنى ويزيده إيضاحا.

ومن إيجاز القصر أيضا، قول الله تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (النمل: ١٨).

قال العلماء: إن التعبير عن قول النملة قد جمع أحد عشر نوعا من البلاغة: أولها: النداء بيا، وثانيها: كنّت بأي، وثالثها: نبّهت بها التنبيه، ورابعها: سمّت بقولها النمل، وخامسها: أمرت بقولها ادخلوا، وسادسها: نصّت بقولها مساكنهم، وسابعها: حذرت بقولها لا يحطمنكم، وثامنها: خصّصت بقولها سليمان، وتاسعها: عمّمت بقولها وجنوده، وعاشرها: أشارت

بقولها وهم، وحادي عشرها: عذرت بقولها لا يشعرون.

قوله تعالى: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) (الأعراف: ٥٤)؛ فكلمتا (الخلق والأمر) استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء، وروي أن ابن عمر قرأها، فقال: من بقي له شيء فليطلبه.

وقوله تعالى: (وَالْفُلْكِ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ) (البقرة:١٦٤)؛ فجمع أنواع التجارات، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العد والإحصاء.

ومنه أيضا قوله تعالى فيما يخاطب به النبي عليه الصلاة والسلام: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (الأعراف: ١٩٩)، فإنه جمع فيه مكارم الأخلاق.

وقال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ) (المؤمنون: ٩١)؛ أي: دلل على الوحدانية، ونفى الشرك.

وللإيجاز فوائد جمة منها: حسن التخير ودقة التفكير وتقريب الفهم وتسهيل الحفظ.

ولذلك تشتهر البلاغة بأنها الإيجاز، والإيجاز نوعان: إيجاز قصر، وإيجاز حذف، ويستحوذ الحذف على الاهتمام الأكبر، فيأتي لقيمة تبعث على تنشيط الذهن وسعة التفكير، وله قيمته المقامية والسياقية، وقد عد ابن جني هذا الباب من "شجاعة العربية "[1].

ويقول عنه عبد القاهر: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت

(١) الخصائص ٢/٣٦٠.

عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[١]، ويقول: "ما من اسم أو فعل حذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها، إلا و حذفه أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"[٢].

ومن المعلوم أن للحذف أغراضه التي لا يغني غناءه فيها ، وإن البلاغة مراعاة المقامات والأحوال؛ فالذكر في موطنه بليغ مطابق ، والحذف في موطنه بليغ مطابق[٣]؛ فالدافع وراء الحذف أو الذكر قيمة الكلمة في التعبير، وهو ما يدفع إلى ذكرها أو حذفها، فلابد أن هناك حكمة للذكر، وحكمة أخرى للحذف.

ويرى د. حسن طبل أن الحذف وسيلة من الوسائل الفنية في التعبير الأدبي، يلجأ إليه الأديب بوحي من ذوقه الرهيف وحسه اللغوي للإيحاء بما لديه من معان وأغراض لا تتحقق إلا بهذا الأسلوب، كما أن فيه تنشيطا لخيال المتلقي ودعوة غير مباشرة له للحدس بهذا المحذوف، واكتشاف ما وراء حذفه من أسرار، وتلك إحدى غايات الفن؛ فالأدب الجيد ليس بثا مباشرا أو إفضاءً صريحا بالمعنى الكامل فيه، ولكنه لون من التظليل والغموض الشفيف الذي يثير ذهن المتلقي ويحرك خياله[٤]، ومعرفة الحذف والذكر يأتي من اشتمال التركيب على عدد من التراكيب المتفق عليها، وفي حال تغير التركيب بفقد أحد عناصره المتفق عليها في اللغة يعد ذلك حذفا، والحذف لا ينسب إلى مضمون القرآن الكريم وإنما ينسب إلى تركيب اللغة.

---

(١) دلائل الإعجاز ١/ ١٢١.
(٢) السابق ١/ ١٥٢.
(٣) انظر/ خصائص التراكيب، ص١٣٥ .
(٤) انظر/ علم المعاني تأصيل وتقييم، ص٩٢.

- صور من إيجاز الحذف في القرآن الكريم :

تتباين أشكال الحذف في سياق التعبير عن السماء والأرض، مما يثري هذه المواضع بعدد من الاختصارات التي تسهم في الوصول إلى المعنى المراد دون حيد عن بلوغه بأقصر الطرق، وأول أشكال الحذف في مواضع التعبير عن السماء والأرض ما أسماه السيوطي في كتابه "معترك الأقران" بالاقتطاع، وهو حذف بعض أحرف الكلمة لغير علة صرفية أو نحوية ... وأكثر ما يكون ذلك فى أسماء المصادر؛ مثل قوله تعالى: (وَاللَّـهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) (نوح:١٧)، والأصل: إنباتاً، ولعل السر في العدول عن الأصل أمران: الأول: لفظي، وهو التخلص من كسرين يؤديان إلى نوع ما من الثقل إذا قارنا بين الصورتين: الأصلية، والتي عليها التعبير؛ لأن "الضاد" من أرض مكسورة كما أن "الهمزة" من المصدر –وهي أول حرف فيه – مكسورة، والثاني: معنوي؛ لأن المصدر (إنباتا)، يدل على مجرد الحَدَث. أما اسمه (نباتا)؛ فيدل على صورة النبات بعد خلقه وترعرعه، فضلاً عن دلالته على الحَدث، ولا شك أن ما دل على معنيين أولى مما دل على معنى واحد، والمقام هنا يقتضي ذلك؛ لأنه بيان لقُدرة الله سبحانه[1]. وأنواع الحذف كثيرة، منها الآتى:

- حذف المبتدأ:

وهو يرد كثيرا في مواضع ذكر السماء والأرض؛ فيُتَّجه إلى تقديره؛ "لأننا نفكر بجمل، ولا يمكن للعنصر الواحد أن يكون مفيدا بمفرده، فلابد من تقدير اعتماده وإسناده إلى عنصر آخر منوي ذهنا حتى تتكون منهما جملة، وهذه الجملة المقدرة المرتبطة بالمعنى هي ما يسميها التحويليون بالبنية العميقة، أو

(١) انظر/ خصائص التعبير القرآني٢/٧١، و/ معترك الأقران ١/٢٥٧.

بالتركيب الباطن، أما ما ينطق لفظا أو يكتب خطا فهو البنية السطحية بعد أن حذف منها من العناصر ما دلت عليه القرائن"[١].

قال تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة:١١٧)؛ فحذف المبتدأ هنا ، وكان قد ذكر في الآية السابقة في قوله: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرض كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (البقرة:١١٦)؛ إذ المراد به الله تعالى "وهو من باب إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، والأصل: بديع سمواته"[٢].

وفي تقدير المحذوف أشكال تتباين بين الرفع والجر والنصب إلا أن المشهور "رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو بديع، وقرىء بالجر على أنه بدل من الضمير في (لَهُ)، وقرىء بالنصب على المدح"[٣]، ورغم التأكيد على أن الرفع هو الأنسب هنا فأن هذه المعاني الثلاث "احتملها المقام بسبب الحذف، ولو ذكر المبتدأ لاقتصر المعنى عليه دونما سواه"[٤]؛ ففي عدم ذكره أيضا تكثير الفائدة، واختصاص السماوات والأرض بالذكر؛ لأنهما أكبر مخلوقاته وأعظمها.

ويظهر من الحذف هنا أنه جاء على طريقة أتباع الاستعمال التي قال بها السكاكي؛ بمعنى استعمال العرب عند ما يجري ذكر موصوف بصفات أن ينتقلوا من ذلك إلى الإخبار عنه بما هو أعظم مما تقدم ذكره؛ ليكسب ذلك الانتقال تقريرا للغرض[٥]؛ فإنهم عندما يخبرون عن شيء كان قد جرى عنه

---

(١) ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، د. طاهر حمودة، ص١٧٨.
(٢) الكشاف ١/ ١٨١، و/ إعراب القرآن وبيانه١/١٧٤.
(٣) اللباب ٢/ ٤٢٢.
(٤) خصائص التعبير التقرآني ٢/٣٧.
(٥) انظر/ مفتاح العلوم للسكاكي، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧، و/ التحرير والتنوير ١٣/ ١٨٢.

حديثا من قبل؛ فإنهم يحذفون ضميره المسند ليشيروا إلى أنه من المكانة والفهم والظهور بما لا يخفى ، فيتركون ذكره لغرض بلاغي وللتوسع وعدم التكرار بما لا يفيد، ومثله قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (مريم:٦٥).

ويرى د. أحمد بدوي أن سر الحذف فيه "خشية أن يبعث في النفس السآمة والملل؛ لشدة وضوحه"[١]، أو أن تكون إعادته تكراراً لم تدع إليه حاجة. وفي قوله تعالى: (قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (الشعراء:٢٤ –٢٨)، وقد حذف المبتدأ هنا ثلاث مرات قبل ذكر الرب؛ أي: هو رب السموات... الله ربكم... الله رب المشرق؛ "صيانته عن ذكره وتشريفا له؛ لأن موسى استعظم حال فرعون وإقدامه على السؤال فأضمر اسم الله تعظيما وتفخيما"[٢]. وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرض إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) (الزخرف:٨٤).

أشارت الآية إلى وجوده سبحانه في كل موضع من مواضع ملكه؛ فهو موجود في السماء وفي الأرض، وهو المعبود فيهما معا دون سواه؛ " لأن الغرض الكلى إثبات إلهيته لا كونه في السموات والأرض"[٣]؛ فهو سبحانه الواحد المتفرد في السماء وفي الأرض. وقد جاء حذف المبتدأ هنا لتعلق قوله: (في السماء) بـ (إله)؛ لأنه بمعنى معبود؛ أي: معبود في السماء ومعبود في

(١) من بلاغة القرآن ص٩٦ ، و انظر/ خصائص التعبير القرآني ٣٦/٢.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٩١، ١٩٢.
(٣) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ٢/ ٢٢٩.

الأرض. يقول السمين الحلبي: " إن المبتدأ حذف لدلالة المعنى عليه، وذلك المحذوف هو العائد تقديره: وهو الذي في السماء إله، وهو في الأرض إله، وإنما حذف لطول الصلة بالمعمول فإن الجار متعلق بـ (إله)"[١]؛ فالمراد إفراده بالعبودية وتوحيده في الذكر، وكان من الممكن ذكر المبتدأ المحذوف ليتضح المعنى تماما، ولكن الحذف هنا أبلغ؛ لأن جميع الناس –مؤمنهم وكافرهم – يشهد أن لهذا الكون ربا واحدا هو الله، ومن هذا المنطلق كان إبراز المبتدأ لن يضيف إلا طول الكلام فحذف لأجل ذلك.

أما تكرار كلمة (إله)؛ فالسر فيه أنه لو قال: (وهو الذي في السماء والأرض إله)؛ لاحتمل المعنى أنه الإله المشترك فيهما، ولكن قد يكون هناك آلهة أخرى غير مشتركة في السماء وفي الأرض، ولو قال: (وهو الذي في السماء وفي الأرض إله) لا ينص على أنه إله في السماء بل في الأرض فحسب، أما التكرار فقد نص على أنه إله في السماء وفي الأرض لا إله غيره[٢].

وقوله تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) (الطور:٤٤)، يقول الرازي: وفي إسقاط كلمة الإشارة حيث لم يقل: يقولوا هذا، إشارة إلى وضوح الأمر وظهور العناد، فلا يستحسنون أن يأتوا بما لا يبقى معه مراء"[٣]، فيكون قولهم هذا بحذف المبتدأ مقصوده العناد والمكابرة حتى في الأمر الواضح، وبذلك يظهر إصرارهم على المعاندة، فلا يريدون التفكير حتى فيما يقول زيادة في الكبر منهم.

---

(١) الدر المصون ٩/ ٦٠٩.

(٢) انظر/ أسئلة بيانية للسامرائي، ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٢٤.

- حذف الخبر:

يأتي حذف الخبر في مواضع التعبير عن السماء والأرض؛ ليفيد أغراضا عدة، وليثير ذهن السامع في البحث عن المحذوف من الآيات، ومنه قوله تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا) (النازعات:٢٧)؛ فالسورة من السور المكية، وهي من السور التي يغلب عليها الإيجاز بالوصول إلى المعنى المراد بأقل الألفاظ ومراعاة الفاصلة، وقد حذف هنا الخبر بعد قوله تعالى: (أم السماء)، وتقدير الخبر "أم السماء أشد"[١]؛ فالسر في حذف الخبر هنا الاحتراز عن العبث؛ فلو ذكر المحذوف لصار ذكره لا فائدة منه، وذلك لعدم حاجة الكلام إليه؛ فالخبر واضح من سياق المفاضلة، كما دعا إلى حذفه أيضا موافقة الفاصلة.

ومثله قوله تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل:٦٠)، وقوله تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الأرض قَرَارًا) (النمل:٦١)؛ فحذف الخبر هنا إذ لا داعي لذكره؛ لأن الخبر عكس المبتدأ في الصفة،وتقديره: أمن خلق السماوات والأرض خير أم ما تشركون، وفيها يبين المولى عز وجل في أسلوب المحاجة الإشارة إلى خلقه تعالى للسماوات والأرض، وجعله الأرض قرارا؛ فأفاد حذف الخبر أحقيته تعالى بالعبادة، وفي الآيات معنى "التوبيخ والتهكم والتقريع"[٢].

(١) التبيان في إعراب القرآن، العكبري ٢/ ٢٨٠.
(٢) فتحُ البيان في مقاصد القرآن ٦٠/١٠.

- حذف المفعول:

والأبرز في سياق التعبير عن السماء والأرض مع حذف المفعول، حذفه في سياق المشيئة؛ حيث حذف ست مرات، منها: قوله عز وجل:(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس: ٩٩). الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يخبره عن استطاعته أن يجعل الناس جميعا مؤمنين به، ولكنه لحكمةٍ يراها تركهم كل حسب اختياره، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ويقول السيوطي عن حذف المفعول أنه يأتي بعد فعل المشيئة؛ "لقصد البيان بعد الإبهام"[١]؛ فإبهام المفعول أولى في هذا الموضع من ذكره؛ ليحدث بحذفه تشويق إليه، وتقديره: ولو شاء ربك هداية الناس لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أضف إلى ذلك أن الذكر سيجعل منه تكريرا حيث يستطيع السامع فهمه من بقية الآية.

وفي الآية حث وتحريض على الإيمان؛ فترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكاري، وتقديم الضمير على الفعل "للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه، فضلاً عن الحث والتحريض عليه، إذ روى أنه – عليه الصلاة السلام – كان حريصاً على إيمان قومه، شديد الاهتمام به"[٢]، وخص الأرض بالذكر لأنها موطنهم، وفيها مؤمنهم وكافرهم أما السماء ففيها المؤمنون من الملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم، وعلى هذا فإن ذكر فعل المشيئة يجعل النفس تتشوق إلى المتعلق بالمشيئة حتى يأتي الجواب[٣].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٩٢، و/ الإيضاح في علوم البلاغة ١٥٤/٢، وانظر/البلاغة العربية للميداني ٣٤٥/١.

(٢) تفسير البيضاوى ٣/ ٢١٦، و/ البحر المديد ٥٠٠/٢.

(٣) انظر/ الحذف البلاغي، ص٥٧.

وقال تعالى: (فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ) (البقرة:٦١)، جاءت الآية ضمن حوار بين موسى –عليه السلام– وقومه؛ حيث طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يخرج لهم أصنافا من النبات بعد أن استجاب لهم بإنزال المائدة من السماء، فاستبدلوا ذلك بشيء من الأرض، فحذف المفعول وتقديره: أي مأكولاً مما تنبت، هذا على مذهب سيبويه"[١]، وقيل: "تقديره: شيئا مما تنبت الأرض"[٢]، فإبهام المفعول هنا لطلب التعميم فيه، والامتناع عن أن يقصره السامع على شيء دون شيء مع الاختصار.

وقال تعالى: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) (البقرة:١٦٤)، ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، والآية من الأدلة الواضحة على وحدانيته تعالى وأحقيته بالعبادة والإلهية دون غيره؛ لأنه خالق هذا الكون وبارئه، فكل ما ذكر في هذه الآية يدل على أنه المتفرد بالخلق، والمفعول محذوف تقديره: وبث فيها دواب، من كل دابة. وقوله: (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول[٣]، والأصل فيها أن يقال: بث فيها دوابا، ولكن لإرادة الشمول عدل عن ذلك إلى تركيب الجار والمجرور ففائدته أشمل وأعم. ومثله قوله تعالى: (وَأَلْقَى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) (لقمان:١٠)، وقوله تعالى: (وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) (العنكبوت:٢٢)، واستعمال المصدر أقوى في الدلالة على الموقف من الفعل، فقال: (وما أنتم بمعجزين)، ولم يقل لا تعجزون

(١) إعراب القرآن، لابن سيدة، ص ١٧٥.
(٢) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٦٨.
(٣) انظر/ تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٦٠٣.

بصيغة الفعل، وذلك لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحية"[١]؛ فنفي الفعل لا ينفي إعجازهم له، أما المصدر فأنه يقطع الأمر، ويوضح ضعفهم التام عن إيقاعهم أدنى درجاته، والمفعول واضح، والمراد به الله تعالى، وسر الحذف هنا العلم به.

- حذف الفعل:

تجعل الدلالة الواضحة على الفعل المحذوف في حكم الملفوظ؛ فقد "يحذف الفعل من السياق القرآني ويراد إثباته، حيث تدل الدلالة عليه، فإن دلت عليه دلالة كان في حكم الملفوظ به"[٢]. قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) (العنكبوت:٦١)، قال ابن هشام عند تقدير المحذوف في هذه الآية: فلا يُقدر (ليقولن الله خلقهم . بل خلقهم الله، لمجيء هذا في شبه هذا الموضع وهو: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف:٩)[٣]، والسبب في ذلك أن تقدير المحذوف لا يكون إلا بقرينة تقدمت؛ حتى يوافق المحذوف المذكور، وتقدير المحذوف فعلا أولى من تقديره خبرا؛ ليوافق الجواب السؤال كما قال صاحب البرهان: "والتقدير: خلقهن الله فحذف خلقهن لقرينة تقدمت في السؤال"[٤]. وسر الحذف أيضا يكمن في "توفير العناية باسم الجلالة الذي هو المقصود الأهم، ولتكثير الفائدة لاختلاف

(١) التفسير الكبير ٤٣/٢٥.
(٢) الإيجاز في كلام العرب ونص كلام الإعجاز، ص ٢٧٨.
(٣) انظر/ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص ٨٢٧.
(٤) البرهان في علو القرآن ١٣٤/٣.

التقدير"[1]، وعده محمد عبد المطلب من قبيل "حذف الفعل احترازا عن العبث[2].

ولكن القول بأنه من الاحتراز من العبث، قول عام قد يصدق على هذا الموضع أيضا، ولكن القول بتوفير العناية باسم الجلالة وتحديده وإفراده بالاهتمام هو الأولى من عدة نواح منها: موافقة الكلام للحذف، وليكون لفظ الجلالة متفردا في الذكر، فيحدث بذلك جذب لانتباه السامع لما يقوله الكفار أنفسهم؛ حيث ينطقون بما يشركون، فيكون الكلام حجة عليهم لتناقض أقوالهم وأفعالهم.

ومثله قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت:٦٣)؛ حيث حذف الفعل، تقدير الكلام: أنزلهن الله، وفيه العناية باسمه تعالى أيضا.

وقد يحذف الفعل بعد أداة العطف، نحو قوله تعالى: (اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لّتَعْلَمُوَاْ أَنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمَا) (الطلاق:١٢)، هذه الآية من الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته في خلق هذا العدد الكبير من السماوات والأرض، وقوله: (مثلهنّ) معطوف على (سبع سموات)، أو منصوب بفعل مقدّر بعد الواو؛ أي: وخلق مثلهنّ من الأرض[3]، والمثلية تعني الاتفاق في بعض الأوصاف، وحذف الفعل في هذا الموضع اكتفاء؛

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/٢٨، ٢٩).
(٢) انظر/ البلاغة والأسلوبية ص ٣٢٥.
(٣) انظر/ روح المعاني ١٤/ ٣٣٧، روح البيان ١٠/ ٤٣، إعراب القرآن وبيانه١٠/ ١٢٨.

لأن هناك تلازم وارتباط بين خلق الأرض وخلق السماء؛ لأن الأرض هي المقابل للسماء من آياته وخلقه.

وقال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) (الانفطار:١)، فما بعد (إِذَا) "مرفوع بفعل مضمر؛ لأن إذا فيها معنى المجازاة؛ فهي بالفعل أولى، فالفعل مضمر بعدها، وهو الرافع للاسم"[١]، وافتتاح هذه الجملة بمسند فعلي دون الإتيان بالجملة الفعلية أو تقدير الأفعال المحذوفة "لقصد الاهتمام بالمسند إليه وتقوية الخبر"[٢]، ومثله قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) (الانشقاق:١).

- حذف الحرف: يحذف الحرف في مواضع التعبير عن السماء والأرض؛ ومن مواضع حذفه ما يأتي:
- حذف أداة النداء.

قال تعالى: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (يوسف:١٠١)، في هذا الموضع حذف حرف النداء مرتين؛ مرة مع قوله: (رب)، والثانية مع قوله: (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض)، ولأن المقام مقام دعاء ومناجاة؛ فقد حذف حرف النداء في الموضعين، والسر في حذفه، ربما لحب الله تعالى أن تكون دعوته دون أداة "تنزيها وتعظيما؛ لأن في النداء طرفا من الأمر"[٣]، وحتى لا يكون هناك وقت – ولو يسير– بين لوصول الدعاء، كما أن حذف الأداة يجعل من مناداته تعالى ذكرا، هذا إلى جانب إرادة الاختصار.

(١) مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي ١/ ١٠٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٧٠/٣٠.
(٣) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢١٢.

ويشعر الحذف هنا بقرب الله من يوسف وإحساس يوسف – عليه السلام – بوجوده، ويرشد إلى علم الأنبياء جميعا بقربه تعالى منهم، أما إذا أراد الله تعالى تعليمنا الدعاء فيقول عن ذاته، قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (الزمر:٤٦)؛ فالميم في آخر اللهم بدل من يا.

- حذف الجملة: تحذف الجملة في مواضع التعبير عن السماء والأرض؛ ومن مواضع حذفها ما يأتي:

- حذف أداة الشرط وفعله.

في قوله تعالى: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت:٥٦)، وتقدير الشرط وفعله: "فإن لم يتأت لكم إخلاص العبادة لي في هذه الأرض فإياي فاعبدوني في غيرها"[١]، فأفاد بهذا الحذف الاختصاص بالعبادة في كثير من الأمور الظاهرة التي لا تخفى.

- حذف جملة جواب الشرط:

قال تعالى: (وَقَالَ مُوسَىَ إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيّ حَمِيدٌ) (إبراهيم:٨)، تظهر الآية قدرة الله تعالى على الاستغناء عن الخلائق جميعا، وفقرهم إليه، وفي الآية حذف لجواب (إنْ) ، وتقدير المحذوف: "إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم"[٢]، وجملة: (فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) تعليل للجواب المحذوف، وفيه إشارة إليه.

(١) البلاغة العربية للميداني ٣٣٦/١.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٥، و/ روح البيان ٤/ ٤٠١.

ومنه قوله تعالى: (وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأرض أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (الأنعام:٣٥)، تدعو الآية النبي – الله عليه وسلم– إلى الصبر على أذى المشركين مهما كبر إعراضهم وكفرهم بالله تعالى، وجواب الشرط محذوف تقديره: فافعل، و حذف الجواب اختصارا؛ "لظهور معناه وطول الكلام"[١]، فلم تدع الحاجة إلى إظهاره؛ لأن سياق الآية فيه عتاب رقيق فاحتاج المقام إلى الحذف.

وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) (الرعد:٣١). الآية في معرض المحاجة؛ حيث طلب المعاندون من رسول الله تعالى أن يأتيهم بآية غير القرآن تكون أعظم منه؛ فكان الرد بتلك الآية التي بينت قدر القرآن وعظمته وهيبته التي لا يقدر عليها أكبر آياته، وتقدير المحذوف عن جمهور العلماء؛ لكان هذا القرآن، " والحذف أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب"[٢]، ويرى أبو هلال العسكري: "أن حذف الجواب جاء اختصاراً؛ لعلم المخاطب"[٣]. وعلى هذا المعنى فالغرض من الآية بيان عظم شأن القرآن الكريم، وإبطال شأن المعاندين الذين يريدون آية أخرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الرد بهذا الشكل، وحذف الجواب؛ لدلالة المقام عليه، وليقدره السامع أي تقدير يراه حسنا، كما أفاد حذفه تكثير المعاني الناتجة عن

(١) التبيان للعكبري ١/ ٢٤٠.
(٢) إعجاز القرآن، ص١٩١، و/ البرهان للزركشي ٤/١٨٤.
(٣) الصناعتين، ص ٥٧، و انظر/ تفسير البغوي ٤/ ٣١٩.

التأويل وتكثير الفائدة بحذفه، كما تتضمن الآية تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرز فصاحة الآية[1].

قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) (التوبة:١١٨). تتحدث الآية عن الثلاثة الذي تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله في غزوة تبوك، ويصور القرآن حالهم وما هم فيه من حزن وغم، وتقدير جواب الشرط في الآية: لجؤوا إليه ثم تاب، وقيل: تداركهم بالتوبة، فردهم إلى ما كانوا عليه قبل مواقعة الذنب، وقيل: رحمهم ثم تاب عليهم[2]، والسر في حذفه دلالة صدر الكلام عليه، ولتكثير الفائدة كما هو واضح من هذه التقديرات.

ومن أشكال حذف جواب الشرط في مواضع التعبير عن السماء والأرض نموذجا تكرر في كثير من الآيات، ومنه قوله تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) (الانشقاق:١). هذه الآية وغيرها من الآيات التي تصور كل واحدة منها على حده هولا من أهوال يوم القيامة بشدته وهيبته، وحذف الجواب في هذه الآيات ظاهرة تسهم بدورها في تصوير فزع الموقف؛؛ ففي حذفه تنبيها على عظم الهول الواقع في هذا اليوم ، ولتذهب فيه النفس كل مذهب، وهو كثير في القرآن وقد عبر عن كل حدث بما يلائم وقته ووقعه ، ومثله قوله تعالى: (وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ) (المرسلات:٩)، وقال تعالى: (وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ) (التكوير:١١)، وقال تعالى: (إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ) (الإنفطار:١)، وقال تعالى: (إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ) (الإنشقاق:١)، وقال تعالى: (إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً)

(١) انظر/ المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣ ، و/ تفسير البيضاوي ٣/ ٣٢٩ ، و/ النكت في القرآن الكريم، ص ٢١٣.

(٢) انظر/ البرهان في علوم القرآن ٣/ ١٩٠، و/ نظم الدرر ٩/٤٠، و/ المجتبى من مشكل إعراب القرآن ٤١٨/٢.

(الواقعة:٤)، وقال تعالى: (وَإِذَا الأرض مُدّتْ) (الإنشقاق:٣)، وقال تعالى: (كَلاّ إِذَا دُكّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً) (الفجر:٢١)، وقال تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا) (الزلزلة:١).

ففي المواضع السابقة حذف الجواب، مع دلالة المقام عليه، وتقديره على حسب السياق، ولكن الهول في كل هذه المواضع واضح، فلاشتراكها في تصوير الهول اشتركت في حذف الجواب.

- حذف جملة جواب القَسَم:

اختلف في حذف الجواب وذكره في بعض المواضع التي وردت في سياق التعبير عن السماء والأرض ، ولكن ترجيح الحذف هو الأولى عند كثير من المفسرين، وهذا " يقع في مواقع التفخيم والتعظيم، ويجوز حذفه؛ لعلم المخاطب، وإنما يحذف لقصد المبالغة؛ لأن السامع مع أقصى تخيله يذهب منه الذهن كل مذهب، ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرح به، فلا يكون له ذلك الوقع، ومن ثم لا يحسن تقدير الجواب مخصوصا إلا بعد العلم بالسياق"[١]. قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) (الذاريات:٧)، وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) (البروج:١)، وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) (الطارق:١)، وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأرض ذَاتِ الصَّدْعِ) (الطارق:١٢، ١٣)، وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأرض وَمَا طَحَاهَا) (الشمس:٥، ٦)، وقد حذف فى كل ما سبق جواب القسم؛ للتهويل، ولتقدره النفس بأى صورة مناسبة، وفيه تكثير المعنى[٢].

- حذف العائد:

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١٨٣/٣.

(٢) انظر / خصائص التعبير القرآني ٦٩/٢.

قال تعالى: (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا) (البقرة:١٦٤)، أراد سبحانه بيان قدرته في خلقه، وتوضيح دلائل هذه القدرة المتمثلة في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر؛ وذلك لئلا يتوهم أحد بذكر العائد – وهو مفعول به – أنه سبحانه يصرف همته لإنزال الماء من السماء ويشغله ذلك عن عباده وعن تدبير شئون الكون، فهو ينزل الماء، وينزل رحمته، وينزل رزقه، وينزل عونه لعباده على قضاء حوائجهم، وينزل أقداره بهم كما شاء، وكيف أراد؛ فإنزال الماء إذن ضمن هذه الإنزالات جميعا، التي يقوم عليها – سبحانه –، وقد وسع كرسيه السماوات والأرض، فهذا ما أفاده حذف العائد في الآية الكريمة، ولو ذكر لقصر البيان عن ذلك [١]. وأصل التعبير وما أنزله، فحذف العائد؛ لأن فيه جمع لمختلفات تظهر قدرته تعالى، وكلها ظاهرة، وليحدث بحذفه تكثير للمعنى المراد؛ لأن المراد بالفعل ليس محصورا في واحد من هذه الأشياء دون الآخر.

ومثله قوله تعالى: (وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الجاثية:٥).

- حذف الموصوف:

يحذف الموصوف وتقوم الصفة مقامه إذا كان هنا دليل عليه يفهم من السياق، "أو شهدت به الحال، فإذا استبهم كان حذفه غير لائق"[٢]. ومما ورد في موضع ذكر السماء والأرض، قوله: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (العنكبوت:٢٢)،

(١) انظر/ الإيجاز في كلام العرب، ص ٣٠٨.
(٢) المثل السائر لابن الأثير ٣٠٢/٢.

يتحدى القرآن من كفر منهم بأنهم لا يضاهون الله تعالى في قوته، ولو جمعوا من الشركاء ما جمعوا. بل الأكثر من ذلك. بل حتى من عبدوهم ظنا منهم أنهم قادرون على مبارزته سبحانه بقوله: "فليس لكم من قوة في هذا الوجود تمتنعون بها من الانقلاب إلى اللّه. لا من قوتكم في الأرض، ولا من قوة ما تعبدونه أحيانا من الملائكة والجن وتحسبون له قوة في السماء"[1]، قد حذف الموصوف فتقدير الكلام كما يقول أبو هلال العسكري: "ولا من في السماء بمعجز"[2]. ورغم أن كثيرا من المؤلفات درجت على جعل هذه الآية من حذف الموصوف، إلا أن البحث لا يرى فيها حذفا أصلا؛ وذلك لأن قوله في (أنتم) يفيد أنهم غير معجزين الله تعالى في الأرض ولو صعدوا إلى السماء بطريقة أو بأخرى فإنهم لن يعجزونه تعالى في السماء، وعلى هذا لا يكون في الآية حذفا.

وقال تعالى: (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) (الإسراء:٩٢)؛ فالكاف في قوله: (كما) صفة لموصوف محذوف، والمعنى: أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلاً لما هددتنا به، من أن فى قدرة ربك – عز وجل – أن ينزل علينا عذابًا متقطعًا من السماء[3]، فحذف الموصوف؛ لإخفائه لفهمه من السياق، وهو سياق أن تسقط، ولو ذكر لكان تكرارا لا فائدة منه، فحذفه احترازا من العبث؛ حتى لا يثقل المقام بذكره مرتين. وقال تعالى:(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (النور:٤٣)، فالتقدير: وينزل من السماء شيئا من جبال، فحذف الموصوف واكتفى بصفته، وهذا أفضل الوجوه التي قيلت فى

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣١.
(٢) الصناعتين، ص ٥٧.
(٣) انظر/ روح المعاني ٨/ ١٦٠، و/الوسيط لطنطاوي ٨/ ٤٢٩.

الحذف في هذه الآية، وهذا الوجه هو الصحيح؛ لأن قوله تعالى: (فيها من برد) يحوجك إلى مفعول يعود الضمير إليه[١].

- حذف المعطوف عليه:

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (آل عمران:٩١). جاءت الآية في معرض التخويف والتهديد والتذكير بأنه لن يقبل من الكافر ما يفدي به نفسه وإن استطاع أن يملأ الأرض ذهبا، وفيها تبكيت له وتجهيل لامتناع وجود مثل هذه الأشياء في الآخرة، وإنما أتى بها هنا زيادة في التعجيز؛ لأنه لا يستطيع فعل ذلك في الدنيا فكيف بالآخرة، وقد حذف جملة المعطوف عليه في سياق (لو)، ولهذه الكلمة خصوصية في مثل هذا السياق؛ لأنها "تجيء منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء، وما بعدها جاء تنصيصاً على الحالة التي يظن أنها لا تندرج فيما قبلها"[٢]، وفي هذا الموضع يظهر أن "المنطوق منبها على المسكوت عنه؛ بمعنى أن الافتداء بملء الأرض ذهبا هو جدير بالقبول، فإن لم يقبل فبطريق الأولى أن لا يقبل الافتداء بأقل من ذلك[٣]، فيحتمل المعنى نفي القبول على كل وجه، ثم خص من تلك الوجوه أليقها وأحراها بالقبول[٤]، وقصد من الآية إيقاع اليأس في نفوسهم في الإفلات من العذاب.

---

(١) انظر/ التبيان للعكبري ٢/٩٧٥.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٢٥٦، نظم الدرر ٤/ ٤٨٠، المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ص ١٣٠.
(٣) انظر/ إعراب القرآن وبيانه ١/٥٦٢. وانظر/ نظم الدرر ٤/ ٤٨١.
(٤) انظر/ تفسير الثعالبي ٢/٧٥.

الفصل الثالث

توظيف الأدوات والصيغ في الجملة القرآنية

طريقة التعبير هي الفاعل الرئيس في الاتصال بين المتكلم والسامع، فاختيار أداة بعينها يجذب السامع ، ويحدث تأثيرا فيه، في الوقت الذي لا تستطيع أداة أو صيغة أخرى على إحداث التأثير نفسه، من هنا جاء الاهتمام بورود صيغ أو أداة في جملة دون غيرها.

فالاختلافات اللغوية التي ترجع غالبا إلى اختلاف الموقف، ذلك الموقف "الذي يحاول القائل أن يراعيه فيما يختار من طرق التعبير، فالفرد (القائل) يريد بقوله أن يوصل إلى شخص آخر أو جماعة من الناس معنى ما، ومن ثم فعليه أن يجعل هذا المعنى مفهوما لهم، وأن يستميلهم إلى قبوله، ولهذا فهو يتخير طريقة التعبير المناسبة للموقف"(١).

كما يعد حسن استعمال تعبيرا دون غيره موضع استحسان الناقد للشاعر والأديب فـ "إن الشاعر أو الكاتب بما تميز به من ذوق فني وحساسية لغوية مرهفة هو أقدر من سواه على استثمار تلك الخصوصيات والفروق وتوظيفها توظيفا فنيا، فهو حين يعمد إلى وظيفة عامة إنما يتخير من بين القوالب والمباني الدالة عليها ما هو أكثر ملاءمة لمعانيه وأدق تصويرا لأغراضه"(٢).

والقرآن الكريم بديع في اختيار أدواته وصيغه وتوظيفها على النحو الذي يحقق معه روعة الأسلوب ودقته، وملاءمة ذلك للموقف والحال ونفس

---

(١) مدخل إلى علم الأسلوب، ص ٢٩- ٣٠.

(٢) علم المعاني تأصيل وتقييم، ص ٣٣.

السامع.

وفي السطور القادمة يتعرض البحث لهذه الظاهرة في مواضع التعبير عن السماء والأرض باستعمال صيغة دون أخرى وأدة دون أداة، ويأتي هذا الفصل على النسق الآتي:

المبحث الأول: الإفراد والجمع.

المبحث الثاني: الاستفهام.

المبحث الثالث: القسم.

المبحث الأول

(الإفراد والجمع)

يثير تعبير القرآن الكريم عن إفراد الشيء مرة وجمعه مرة أخرى تساؤلا عن معايير هذا التلون والتوظيف الدقيق للكلمات داخل الجملة الذي يسهم في إيصال المراد بأقرب طريق، كما يشير إلى توظيف هذه الكلمة أو تلك بما يناسب المقام الذي جيء بها من أجله، ولا شك أن الأسلوب القرآني المعجز حينما يأتي بهذا الأسلوب لابد أن يكون قاصدا ما يناسب موقع الكلمة في التركيب وعلاقتها بما يجاورها بل علاقتها بالنظم كله داخل الآية الواحدة والسورة كاملة. وللقرآن معاييره للمحافظة على ذلك التوازن بين السياق وما يحققه حال وقعه على السامع؛ فإفادة الإفراد قد لا يصلح فيها الجمع والعكس؛ ويتضح أن "من وسائل القرآن الكريم في اختياره ما يحقق التناسب الصوتي، والانسجام التأليفي للآيات القرآنية اعتماده توظيف بعض الكلمات في صورتها المفردة في سياقات، ثم توظيفها مرة أخرى في صورتها الجمعية في سياقات أخرى، وما ذاك إلا مراعاة للتلوين الصوتي لهذه الكلمات، وقصداً لما يراد من وراء هذا التلوين من توابع دلالية وجمالية"(١)، وللقرآن الكريم معايير أخرى يلجأ إليها في اختيار ألفاظه مفردها أو جمعها منها مناسبة الكلمة للمقام، وأن تكون الأليق في التعبير، والأخف على اللسان والأوقع في السمع(٢).

وقد ورد لفظ السماء في القرآن الكريم مفردا مائة وعشرين مرة وجمعا – سموات– مائة وتسعين مرة، وجاءت بمعان متعددة، أما لفظة الأرض وجمعها أرضون فقد وردت في القرآن الكريم مفردة في أربعمائة وإحدى

---

(١) مقال بعنوان: الكلمة القرآنية بين الإفراد والجمع. http://rowayawdraya.alafdal.net/t81-topic.

(٢) انظر/ صفاء الكلمة، ص ١٢٢.

وستين مرة (٤٦١)، وتعدد معانيها؛ حيث قصد بها بلاد كثيرة وبلاد معينة والأكثر ورودها عامة مطلقة غير مقيدة، ولم ترد في القرآن (الأرض) مجموعة أبداً، ولكنها وردت بصيغة الجمع في الحديث الشريف فى قوله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شبْرٍ منَ الْأَرْضِ، طُوِّقهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ"(١)، والجاحظ أول من فطن إلى إفراد الأرض في القرآن؛ حيث يقول عن هذه الظاهرة: "وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين"(٢). ويشير كلام الجاحظ إلى كيفية اختيار القرآن لألفاظه، ووضوح هذه الدقة كلما تأمل المتأملون في مواضع ألفاظه ومعانيها، وهي ما تميزه عن أي كتاب آخر.

ويأتي ابن القيم ليرجع سبب عدم جمع الأرض إلى أن هناك فرقين –بين استعمال جمع السماء وترك جمع الأرض–: فرق لفظي وآخر معنوي؛ أما اللفظي فإن الأرض على وزن ألفاظ المصادر، وأما السماوات فهي بأبنية الأسماء أشبه، ولو جمعوا أرضاً على قياس جموع التكسير، لقالوا: آرض كأفلس، أو آراض كأجمال، أو آروض كفلوس، فاستثقلوا هذا اللفظ، ولفظ السماوات يلج في السمع لنصاعته وعذوبته. ولفظ (الأراضي) لا يأذن له السمع إلَّا على كره. ولتفادي جمع الأرض الثقيل أتوا بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد كما قال تعالى: (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) (الطلاق:١٢)، وأما الفرق المعنوي فهو أن الأرض لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، وأما السماوات فليست من الدنيا، هذا على أحد القولين في الدنيا فإنه اسم للمكان، فإن السموات مقر ملائكة الرب

(١) مسند الإمام أحمد ٥١/٤١، (٢٤٥٠٤).
(٢) البيان والتبيين ٢٦/١.

تعالى ومحل دار جزائه ومهبط ملائكته ووحيه(١). أما الرافعي فيرجع السبب في إهمال جمع الأرض؛ "لهذه الجسأةِ التي تدخل اللفظ ويختل بها النظم اختلالاً"(٢).

فطبيعة جمع الأرض بعيدة عن اللين المنشود في الذكر، والوقع المقبول في السمع، ولمجافاته للبلاغة وهو ما يجعل القرآن الكريم يبعده عن الورود ولو لمرة واحدة. أضف إلى ذلك قيمة ذكر الجمع نفسه، فبتدبر جمع السماء نجد أن جمعها ضروري للتعبير عن هذا العدد الذي أخبر به القرآن وأخبرت به السنة المطهرة، بأن هناك سكانا يسكنون هذه السماوات هم الملائكة، ولا ينخرط ذلك على الأرض فليست إلا أرضا واحدة؛ يقول الطاهر: "وفي إفراد لفظ (الأرض) دون أن يؤتى به جمعا كما أتي بلفظ السماوات إيذان بالاختلاف بين حاليهما... وقد تبينت أن إفراد الأرض مشعر بأنها أرض واحدة، وأن المماثلة في قوله: (مثلهن) راجعة إلى المماثلة في الخلق العظيم"(٣). و في ظل هذا العدد الكبير من الآيات التي تباين فيها ذكر السماء إفرادا وجمعا، آثرت أن يكون التحليل في المواضع المتقاربة في السياق، وكان الاختلاف في إفراد السماء أو جمعها، سواء في سياق الآية الواحدة أو بين آيتين مختلفتين.

ويمكن تقسيم هذا المبحث إلى أربعة أقسام:

الأول: إفراد الأرض في مقابل جمع السماء داخل الآية.

الثاني: إفراد الأرض في مقابل إفراد السماء داخل الآية.

الثالث: إفراد السماء وجمعها داخل الآية.

---

(١) انظر/ بدائع الفوائد ١/ ١١٣ – ١١٤.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٦٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٤٠.

الرابع: إفراد السماء في مقابل جمعها في آيتين مختلفتين مع وحدة السياق فيهما.

الأول: إفراد الأرض في مقابل جمع السماء داخل الآية:

عطفــت لفظــة

السماوات على لفظة الأرض في القرآن الكريم مائة وثلاثين مرة ؛ فى قوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (الإسراء:٤٤)، يبين المولى في هذه الآية تسبيح كل شي لعظمته؛ فذكر السماوات والأرض ومن فيهن ثم بقية المخلوقات، وقد خص السماوات بذكر العدد؛ لإبراز الوحدانية أولا، ولأن السياق بدأ بذكر العقلاء أولا فقال السماوات السبع ثم الأرض واستخدم الموصول العاقل ثم أردف الآية بذكر بقية الكائنات، يقول صاحب الظلال: "وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتنفض روحاً حية تسبح الله تعالى"(١)، وجمع السماوات هنا؛ لأن كل سماء مختصة بذاتها قائمة بنفسها فيها ما فيها من المخلوقات، وذكر عددها إشارة إلى خضوع من فيها لله تعالى، وأفرد الأرض؛ لأنها أرض واحدة حية معروفة عليها حياة، ودليل ذلك قوله تعالى: (ومن فيهن).

وفي قوله تعالى: (اللّهُ الذِي خَلقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمرُ بَيْنَهُنّ لّتَعْلَمواْ أَنّ اللّهَ عَلىَ كلّ شَيْءٍ قدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قدْ أَحاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمَا) (الطلاق:١٢)، ويقول صاحب الكشاف: وقد أجمع المفسرون أنَّ السموات سبع، وليس في القرآن آية تدل على أنَّ الأرضين

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٠.

سبع غير هذه الآية(١)، والعلماء مختلفون في كون الأرض مثل السماء في العدد أم في الخلق، فذهب بعضهم إلى أن "قوله: (مثلهن) أي: في الخلق لا في العدد"(٢)، ويقول البيضاوي: "وخلق مثلهن في العدد من الأرض"(٣)، والذي يراه البحث أن الأرض تشبه السماء في العدد والخلق ولكن ليس بالشبه المطابق، وإنما على وجه العموم، فخلق الأرض عظيم كخلق السماء، وللأرض طبقات بعضها فوق بعض، لكنه لم يُسمع بوجود حياة في مكان غير هذا السطح الذي نعيش عليه.

الثاني: إفراد الأرض في مقابل إفراد السماء أيضا داخل الآية:

ورد عطف

السماء على الأرض خمس عشرة مرة، وقد توزع ذكرهما معا في الدلالة على الخلق والعلم والرزق والقدرة، ففي ذكر العلم بما فيهما يقول تعالى: (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (الأنبياء:٤)، ويقول تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحج:٧٠)، ويقول تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل:٧٥). تشير الآيات هنا إلى أن إرادة الإفراد في السماء والأرض جاءت لبيان الجنس عموما، والجامع بين هذه الآيات هو علمه تعالى بما فيها جميعا. ففي قوله تعالى: (رَبي يَعْلَمُ القوْل في السمآء وَالْأَرْض) يقول ابن عباس: أي يعلم السر من القول والفعل من أهل السماء والأرض"(٤)؛ ففي هذه الآية والآيات الأخرى تأتي السماء مفردة وكذلك

(١) انظر / الكشاف ٤/ ٥٦١.
(٢) تفسير النيسابوري ١٣/ ٤٧٧.
(٣) تفسير البيضاوي ٥/٣٥٣.
(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص ٢٦٩.

الأرض لإفادة العموم.

الثالث: إفراد السماء وجمعها داخل الآية:

وردت السماء مفردة غير مقترنة بالأرض أربعا وخمسين مرة، وجاءت بصيغة الجمع غير مقترنة بالأرض خمس مرات"، والسماء إذا كانت المعروفة فجمعها سَمَوات وإذا كانت المطر فجمعها سُمّي"(١). والمراد بالسماء على إطلاقها العرفي عند العرب هو "ما يبدو للناظر كالقبة الزرقاء وهو كرة الهواء المحيط بالأرض، وهذا هو الغالب إذا أطلق السماء بالإفراد دون الجمع"(٢).

والقرآن الكريم يستخدم كل كلمة في الموضع الذي يلائمها داخل السياق، وحتى يكون التعبير واضحا جليا مؤديا للغرض الذي من أجله سيق، فقد جاءت السماء مفردة في سياقات كثيرة، وكذلك السماوات بصيغة الجمع، "والمتتبع لأساليب القرآن الكريم يجد أنه إذا أريد الوصف المطلق للسماوات بالعلو والارتفاع، أو قصد منها الجهة أفرد لفظ (السماء) بحسب ما يتصل به من الكلام السابق، وإذا كان المقصود ذوات السماوات بأعدادها الكثيرة أتى بصيغة الجمع، إذ المقصود ذواتها لا مجرد العلو والفوق"(٣).

قال تعالى: (هُوَ الذِي خَلقَ لَكُمْ ما في الأرْضِ جَمِيعاً ثمّ اسْتَوَىَ إِلى السّمَآءِ فسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَليمٌ) (البقرة:٢٩)، ويراد بالسماء وهي مفردة هنا العلو مع بيان الجنس، فخلق في الأعلى هذه السماوات وعددها سبع سماوات. يقول الزمخشري: والمراد بالسماء

(١) المزهر في علوم اللغة ٢ /١٨٢.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٣١.
(٣) صفاء الكلمة، ص١٢٣.

جهات العلو ... والسماء في معنى الجنس ...(١)، وقال صاحب التحرير: "والسماء مشتقة من السمو وهو العلو، واسم السماء يطلق على الواحد وعلى الجنس من العوالم العليا التي هي فوق العالم الأرضي، والمراد به هنا الجنس بقرينة قوله: (فسواهن سبع سماوات)؛ إذ جعلها سبعا والضمير في قوله: (فسواهن) عائد إلى السماء باعتبار إرادة الجنس؛ لأنه في معنى الجمع، وجوز صاحب الكشاف أن يكون المراد من السماء هنا جهة العلو، وهو وإن صح لكنه لا داعي إليه كما قاله التفتازاني..."(٢)، وقيل أيضا: "إن السماء لفظها لفظ الواحد ومعناها معنى الجمع(٣). فالسماء ليس المراد منها فردا من أفراد السموات، وإنما المراد منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع السموات، فصح أن يعود عليها ضمير جمع الإناث في قوله: (فسَوَّاهُنَّ)، وكذلك علماء البيان يزيدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار في معنى الجمع"(٤)، ومن خلال أقوالهم يتضح أنه قد يراد بإفراد السماء الجهة أو أن يراد به الجنس في الآية، فكلاهما يكمل الآخر، أما ذكر الجمع فكان لتأكيد العدد في ذهن السامع، وقال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:١٦٤)، ويعلق الطاهر على الآية بذكر سبب الإفراد والجمع عموما من خلال هذه الآية، وأن الإفراد قد

(١) انظر/ الكشاف ١/ ١٢٣.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٨٥.
(٣) زاد المسير ١/ ٥٨.
(٤) الوسيط لطنطاوي ١/ ٩٠.

يراد به في كثير من الأحيان الجهة العليا من الفضاء، أما الجمع، فالمراد به أجرام عظيمة ذات نظام خاص مثل الأرض وهي السيارات العظيمة المعروفة ....(١)، فالجمع في الآية؛ لإبراز قدرته وعظمته وسعة ملكه وإبداع خلقه، وأفرد السماء بالقصد إلى الجزء المواجه للأرض، أو إرادة العلو بالإشارة إلى موضع نزول المطر، وأفرد في الثالثة بقصد ذكر ما يحيط بالأرض من غلاف جوي.

وقال تعالى: (اللّهُ الذِي خَلقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ منَ السّمَآءِ مآءً فأَخْرَجَ بهِ منَ الثّمرَاتِ رِزْقاً لّكمْ وَسخّرَ لَكمُ الْفُلكَ لِتَجرِيَ في الْبَحرِ بِأَمْرِهِ وَسَخّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ) (إبراهيم:٣٢)، ففي الجمع الامتنان على عباده، وفي الإفراد الجهة العلوية، يقول الإمام الشوكاني في قوله: "(الله الذي خلق السموات والأرض)؛ أي: أبدعهما واخترعهما على غير مثال وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية (وأنزل من السماء ماء) المراد بالسماء هنا: جهة العلو"(٢)، لما أراد خلق الكون والتعبير عن السعة فيه جمع السماوات، ولما قصد الجهة المقابلة للأرض أفرد السماء–والله تعالى أعلم.

الرابع: إفراد السماء في مقابل جمعها في آيتين مختلفتين مع وحدة السياق فيهما:

قال تعالى: (وَسَارِعُوَاْ إِلىَ مَغْفرَةٍ من رّبّكمْ وَجَنةٍ عَرْضهَا السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدّتْ لِلْمُتّقِينَ) (آل عمران:١٣٣)، وقال تعالى:(سَابِقُوَاْ إِلىَ مَغْفرَةٍ من رّبّكمْ وَجَنةٍ عَرْضهَا كَعَرْضِ السّمَآءِ وَالأَرْضِ أُعِدّتْ لِلذِينَ آمَنواْ

(١) انظر/ التحرير والتنوير ٢/ ٧٧.
(٢) فتح القدير ٣/ ١١٠.

بِاللّـهِ وَرُسُلِهِ ذَلكَ فضْلُ اللّـهِ يُؤْتِيـهِ من يَشَآءُ وَاللّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد:٢١)، ويقول صاحب ملاك التأويل عن السبب في إفراد السماء في موضع وجمعها في الآخر مع قرب السياق في الآية إن ذلك يرجع إلى اختلاف السياق حول كل آية على حدة وهو ما جعل الإفراد الذي يصلح مع هذه لا يصلح مع تلك؛ فيقول: "وفى جرى الإيجاز فى جميعها ولما اتصل بقوله: (عرضها) فى آية آل عمران وهو مبتدأ والخبر عنه مجموع، فقيل: (السماوات)، فأفصح الجمع ما مهدناه من قصد المبالغة والتعظيم...، ولم يكن قوله تعالى: (عرضها السماوات) بالجمع كقوله فى آية الحديد: (كعرض السماء) فأفرد ولا قوله: (أعدت للمتقين)؛ كقوله فى آية الحديد: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله)، فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التى ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ناسب ذلك جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذى لابد منه عند بيان المعنى على ما تقدم، ولما لم يقصد فى آية الحديد ذلك أفصح فيها بما يعطى معنى مثل وهى كاف التشبيه، وورد كل على ما يناسب ويلائم" (١).

ففي آل عمران: يظهر أن الخطاب للمؤمنين، وفيه ترغيب لهم على زيادة الخير والمعاونة عليه وارتقاء عبادتهم، فإن الله أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض جميعا. وفي آية الحديد حث للمعاندين الكافرين على الإيمان؛ لأن ذكر السماء والأرض مفردة غير مجموعة أولى لتقريب المعاند؛ لأنه لم يؤمن بعد بالغيبيات فخوطب بما يعرف، وقال تعالى:

(١) ملاك التأويل ١/ ٣١٦.

(قلْ من يَرْزُقُكُم منَ السّمَآءِ وَالأرْضِ أَمن يَمْلكُ السّمْعَ والأبْصَارَ وَمَن يُخرِجُ الْحَيّ منَ الْمَيّتِ وَيُخرِجُ الْمَيّتَ منَ الْحيّ وَمن يُدَبّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتّقُونَ) (يونس:٣١)، وقال تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (سبأ:٢٤)، والإفراد الوارد في آية يونس محصل للمعنى مع الإيجاز فورد هنا على ما يجب، وأما الوارد في سورة سبأ على الجمع فروعي فيه ما تقدم من قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) (سبأ:٢٢)، والمراد بذلك نفى الشركاء له تعالى، ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضا فقال تعالى: (قلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) على الجمع مناسبة إذ الآية قبلُ، وهذه فى قضية واحدة وهى نفى الشركاء والأنداد؛ فجاءت على ما يناسب التي قبلها. والحكم في هاتين الآيتين للسياق؛ فاختلاف السياق هو الباعث الرئيس وراء هذا الاختلاف في الإفراد والجمع بينهما؛ والآية سيقت في الاحتجاج على الكفار بما أقروا به من أنه هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر شئونهم، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل السماء التي يشاهدونها، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى ينتهي إليهم، فجاءت الآية بما يقرون؛ لأنهم أجابوا بأنه الله ؛ لذا أفردت السماء هنا. أما آية سبأ فإنهم لم يقروا بما ينزل من السماء، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب، ولم يذكر عنهم أنهم هم المجيبون المقرون، فأمر

نبيه أن يجيب عنهم، ولهذا جاءت السماوات مجموعة(١).

واستخدمت السماء في سورة يونس؛ "لأن السياق في الاستغراق ، فجاء بأوسع حالة وهي السماء؛ لأنها أوسع بكثير من السموات في بعض الأحيان، فالسماء واحدة وهي تعني السموات أو كل ما علا، وفي سورة سبأ استخدم السموات حسب ما يقتضيه السياق"(٢)، وفي الآية تذكير بنعمة المحسوسات؛ فالرزق في السماء ومن الأرض والسمع يلمسونه في أنفسهم، وإخراج الحي من الميت ونقيضه معروف لديهم، وجاء التذييل (فَسَيَقُولُونَ اللّهُ) لعلمهم ومعرفتهم ولكنهم ينكرون الحق كبرا، كما أن قصد بالسماء هنا الجزء المقابل للأرض، وأراد بالرزق ما ينزل منها من غيث ونحوه. وربما كان جمع السماوات تعريضا بأن الأرزاق إنما تكتب في السماوات في أم الكتاب إذ يمحو الله ما يشاء ويثبت.

وقال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء:١٦)، وقال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الدخان:٣٨)؛ ففي آية (الأنبياء) يراد بالسماء السقف؛ "أي: وما سوينا هذا السقف المرفوع، وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب.."(٣)؛ فجاء إفراد السماء من هذه الناحية. أما آية (الدخان) فإنه "لما أنكر تعالى على كفار مكة قولهم، ووصفهم بأنهم أضعف ممن كان قبلهم، ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة، فقال تعالى: (وما خلقنا السموات)؛ أي: على عظمها واتساع كل واحدة منها واحتوائها لما تحتها وجمعها، لأن العمل كلما زاد كان

(١) انظر/ ملاك التأويل ٣٣٤/١، ٣٣٥، و/ بدائع الفوائد ١/ ١١٧– ١١٨، و/ صفاء الكلمة، ص١٢٥.
(٢) التعبير القرآني السامرائي، ص ٦٢، ٦٣.
(٣) اللباب ١٣/ ٤٦٠.

أبعد عن العبث"(١).

يقول النيسابوري: "وسبب جمع السموات ههنا لموافقة قوله في أول السورة (رب السموات)"(٢)، وهناك أسباب أخرى –والله أعلم–فإنه لما ذكر قدرته تعالى على إهلاك العاصين والمستكبرين من الأمم الغابرة بعدما أرسل إليهم الرسل والآيات؛ بين تعالى قدرته على خلق السماوات والأرض وجمع السماء لإظهار تلك القدرة العظيمة، وكرر الخلق في الآية التالية عليها تأكيدا للأولى وحثا على النظر والتأمل، وفيه تأكيد على قدرته تعالى على الإحياء الذي أنكروه بقولهم: (وما نحن بمنشرين)، وقال تعالى:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المجادلة:٧)، وقال تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (الحج:٧٠).

سياق آية (المجادلة) يدور حول تحدي هؤلاء المعاندين؛ فهو يعلم كل شيء في السماوات بما فيها وبمن فيها وكذلك الأرض فهو على سعة ملكه الكبير يعلم ما فيهن؛ لذا جاءت السماوات جمعا في هذه الآية ليدل على عظيم علمه الواقع على سعة ملكه. وقصد الجمع للإشارة إلى أنه يعلم سر أهل السَّماوات وسر أهل الأرض(٣)، "ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل"(٤)، أما آية

(١) السراج المنير ٣/ ٤٦٥.
(٢) تفسير النيسابوري ١٣/ ١٦٦.
(٣) انظر/ بحر العلوم ٢/ ١٧٧.
(٤) تفسير السعدي، ص ٨٤٥.

(الحج) فإنه "لما كان السياق لحفظ أحوال الثقلين للحكم بينهم، وكان أكثر ما يتخيل أن بعض الجن يبلغ استراق السمع من السماء الدنيا، لم تدع حاجة إلى ذكر أكثر منها، فأفرد معبراً بما يشمل لكونه جنساً – الكثير أيضاً– فقال: (السماء والأرض) مما يتفق منهم ومن غيرهم من جميع الخلائق الحيوانات وغيرها"(١).

وقال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآَنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس:٦١)، وقال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سبأ:٣)

ففي آية (يونس): تجد السياق يتحدث عن الشهادة على أعمال العباد فقدم الأرض؛ لأن المخاطبين فيها، وأفرد السماء لتلوها في الأهمية ولإرادة شمولها بذكر جنسها، يقول البقاعي: "قال: (في الأرض) ولما لم يدع السياق إلى الجمع –كما سيأتي في (سبأ) – قال اكتفاء بالمفرد الدال على الجنس: (ولا في السماء)؛ أي: ما علا عن الأرض كائناً ما كان"(٢).

أما آية (سبأ) "ولما كان قد بين علمه بأمور السماء، وكان المراد بها الجنس، جمع هنا تصريحاً بذلك المراد، فقال: (في السماوات)، وأكد النفي بتكرير(لا) فقال: (ولا في الأرض) ولما كنا مقيدين بالكتاب، ابتدأ الخبر بما يبهر العقل من أن كل شيء مسطور من قبل كونه، ثم يكون

(١) نظم الدرر ٩١/١٣.
(٢) السابق ٩/ ١٥١، ١٥٢.

على وفق ما سطر، فإذا كشف للملائكة عن ذلك ازدادوا إيماناً وتسبيحاً وتحميداً وتقديساً"(١).

فإرادة التصريح بالجمع والتكثير هي السر وراء استعمال الجمع بدلا من الإفراد، ويرى الشيخ طنطاوي أن "ذكر – سبحانه – السماوات والأرض لقصد التعميم؛ إذ هما محل الموجودات الخارجية"(٢)، وذكر هذا التعبير (السماوات والأرض) مما يعني تمام القدرة على علم كل حقير وعظيم، كما أن الآية جاءت في معرض الرد على المعاندين، فكان الجواب محملا بما لا يدع مجالا لشك شاكٍّ مفعما بمحاولة الإقناع بذكر المعجزات الباهرة والقدرة الخارقة للخالق عز وجل، وهناك آيات وردت فيها السماء مفردة في سياق، ثم جاءت جمعا في سياق آخر، وهناك قرب بين السياقين لكنه في موضع التركيب، وقد جاءت على النحو الآتي:

قال تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات:٢٣)، والسماء ذات الحبك... وفي السماء رزقكم...فورب السماء "فبعد أن أكد الكلام بالقسم بـ (الذاريات) وما عطف عليها فرع على ذلك زيادة تأكيد بالقسم بخالق السماء والأرض على أن ما يوعدون حق، فهو عطف على الكلام السابق ومناسبته قوله: (وما توعدون)، وإظهار اسم السماء والأرض دون ذكر ضميرهما؛ لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه"(٣)، والسماء أعم من السماوات وأشمل وهو ما يظهر بالنظر في الآيات التي جاءت فيها السماء على

(١) نظم الدرر ١٥/ ٤٤٦.
(٢) الوسيط لطنطاوي ١١/ ٢٨٦.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٣٥٥.

الإفراد أو الجمع؛ يقول أبوحيان: "والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات"(١).

وقال تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) (الإسراء:١٠٢)، الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون لعنه الله، يعلمه فيه وهو عالم بهذا أن الذي أنزل هذا الوحي وهذه الآيات هو الله تعالى، ولكنه آثر التعبير عن لفظ الجلالة بقوله: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؛ فما "أحسن إسناد إنزالها إلى رب السموات والأرض إذ هو عليه السلام لما سأله فرعون في أول محاورته فقال له: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الشعراء:٢٣،٢٤) تنبيهاً على نقصه وأنه لا تصرف له في الوجود فدعواه الربوبية دعوى مستحيل، فبكَتَه وأعلمه أنه يعلم آيات الله تعالى ومن أنزلها ولكنه مكابر معاند"(٢)، وربما كان من إسناد الربوبية إلى الله تعالى مع ذكر السماوات والأرض على سعتهما تعريضا لما قاله فرعون عن نفسه: أنا ربكم الأعلى. وشمل السماوات والأرض وما بينهما جميع العوالم المشهودة للناس بأجرامها وسكانها والموجودات فيه(٣).

وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحج:٦٥)

فقد أفرد السماء في هذه الآية في سياق تسخير ما في الأرض، والفلك التي تجري في البحر بقدره ومشيئته، ولفظ (السماء) هنا يجوز أن يكون

(١) البحر المحيط ٩/ ٥٤٩.
(٢) روح المعاني ٨/ ١٧٤.
(٣) انظر/ التحرير والتنوير ٢٣/ ٨٦.

بمعنى ما قابل الأرض في اصطلاح الناس، فيكون كلا شاملا للعوالم العلوية كلها التي لا نحيط بها علما كالكواكب السيارة وما الله أعلم به وما يكشفه للناس في متعاقب الأزمان، ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسقوط فيكون المعنى أن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاما يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله: (ويمسك السماء) امتنانا على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم، ويجوز أن يكون لفظ السماء قد أطلق على جميع الموجودات العلوية التي يشملها لفظ (السماء) الذي هو ما علا الأرض، فأطلق على ما يحويه كما أطلق لفظ الأرض على سكانها في قوله تعالى: (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها)(١).

وقد اكتفى بالإفراد هنا للإشارة إلى الترغيب والترهيب؛ لأن السياق سياق تذكير بالنعم لم يركز تركيزا كبيرا على جمع السماء لتأكيد هول من الأهوال، ولكنه ذكر هذه النعمة ضمن نعم أخرى تعديدا لها، فناسب الإفراد ذلك، كما أن السماء هي أول ما يقابل الناظر وليست السماوات، فسياق النعم والتذكير بها تفرد فيه السماء.

وقال تعالى: (إِنَّ اللَّـهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) (فاطر:٤١)

تبدأ الآية بتأكيد الخبربأنه لا يوجد ممسك للسماوات على إطلاقها إلا هو والآية "مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شيء"(٢)، "(يمسك السموات)؛ أي: على كبرها وعلوها (والأرض)؛ أي: على سعتها وبعدها عن التماسك على ما

(١) السابق ١٧/ ٣٢٤.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٥٥.

تشاهدون"(١).

والتعبير بالسموات جمعا والأرض على ما فيهن من صفات السقوط والخسف، فالله تعالى يعذب بهما ويمن بهما، فهو تعالى يمسك هذا العدد من السماوات من أن تزول سقوطا على هؤلاء، ويمسك الأرض أن تزول بالخسف والاضطراب، ويختم الآية بختام يبين رحمته وحلمه، فهو حليم؛ ليتوب الخلق ويتم الغفران، وفي جمع السماوات مع الإمساك القدرة البالغة، وحلمه مع الغفران إنما ينم عن قدرة أكبر، وذكر السماوات جمعا أكبر في تعجيزهم وتبكيتهم.

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) (فاطر:٤٤)، تحث الآية على السير والتأمل في هذا الكون الواسع الفسيح، والاعتبار والتيقن بقدرة الله تعالى التي لا يحيطها وصف، "وجيء بلام الجحود مع (كان) المنفية لإفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته فهذه الجملة كالاحتراس"(٢)، وجمع السماوات لأنه "عُلم بما يصل إليه إدراكنا بقوله: (في السماوات)؛ أي: جهة العلو، وأكد بإعادة النافي، فقال: (ولا في الأرض)؛ أي: جهة السفل"(٣)؛ فأفاد جمع السماوات غاية التحدي والتعجيز، ودل على ذلك ما قاله في أول الآية من إهلاك الأمم المعاندة.

وقال تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ

---

(١) السراج المنير ٣/ ٢٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٩.
(٣) نظم الدرر ١٦/ ٧٦.

دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (العنكبوت:٢٢)، وقوله: (فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)أي: ولا من فى السماء يمعجزين الله فيها، والمعنى: أنه لا يعجزه –سبحانه– أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء لو كنتم فيها(١)، وربما قصد بالسماء جو السماء من أعالي الجبال قديما وما ظهر من معدات وأدوات حديثة جعلت هذا الإنسان يصعد إلى جو السماء، ولكنه في هذه الآية يعلمه أنه حتى لو صعد إلى السماء فلا يكون ذلك إلا بسلطان منه وحده؛ ليريكم آياته فتكون حجة عليكم فأفردها لأن المراد جهة العلو، وقصد بالأرض الهروب إلى تخومها، وقلاعها، وحصونها. وقال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء:١٠٤)، بينت هذه الآية أن المطوي هي السماء الدنيا أو السماوات؛ فذكر السماء وأراد الجنس؛ أي: السماوات؛ ي هذا اليوم يطوي السماوات رغم اتساعها كطي الكاتب لسجله، "وقراءة المفرد لمقابلة لفظ السماء، والجمع للدلالة على أن المراد الجنس، فجميع السماوات تطوى"(٢)، "وأراد بالسماء الجنس، دليله: (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) (الزمر:٦٧). وقال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر:٦٧)، وردت السماوات جمعا؛ "لأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع اتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر؛ ليُعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي

(١) انظر/ فتح القدير ٤/ ١٩٨، و / الوسيط لطنطاوي ١١/ ٢٦ .
(٢) نظم الدرر ١٢/ ٤٨٨ ، و / الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١١/ ٣٤٧.

كلهن"(١)، وقد بينت هذه الآية أن المطوي هي السماوات جميعا، وقد "جاءت السماء مجموعة في سور(الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن)؛ ففي هذه السور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم، تباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم"(٢).

والواضح من إفراد السماء أنها لا تأتي مجموعة إلا في سياق التعبير عن العظمة والسعة والهيمنة والسيطرة والتأكيد على القدرة وذكر العدد، ولا تأتي مفردة إلا إذا دلت على جهة العلو أو عبرت عن شيء من الأشياء كالمطر، والسحاب وغير ذلك.

أما ذكر الأرض فقد التزمه القرآن في التعبير عن (الأرض) في كل موضع ذكِرَت فيه، وما أكثر مواضع ذكرها فيه مصاحبة للسماء، أو السموات، "وهي سواء أفردت السماء أو جُمِعتَ مذكورة معها فإن الإفراد هو طابعها في كل موضع. وحين يريد القرآن صيغة الجمع من الأرض فإنه لا يخرج عن مبدأ هذا الالتزام؛ فيأتى بالأرض مفردة، ويدل على الجمع منها بالوصف؛ قال تعالى: (وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُن)؛ أي: مثل السموات سبع أرضين، وقال: (وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ)"(٣)، فلا حاجة تدعو إلى جمعها مما دعت الحاجة فيه إلى جمع السماء، وإفراد الأرض في عموم القرآن في مقابل جمع السماء إعجاز وحده.

(١) الكشاف ٤/ ١٤٤ ، وانظر/ البحر المحيط ٩/ ٢٢٠.
(٢) بدائع الفوائد ١/ ١١٦، وانظر/ صفاء الكلمة ص ١٢٤.
(٣) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢٧٩/١ – ٢٨٠.

المبحث الثاني

(الاستفهام)

يكتسب الاستفهام معناه ودلالته من سياق الآية، والاستفهام في مواضع ذكر السماوات والأرض له قيمته في النفوس؛ لأن ذكرهما أكبر من كل شيء، والمعاني التي يحملها الاستفهام في هذه المواضع عظيمة الفائدة وقوية التأثير في نفوس السامعين له، وباستظهار أنواع الاستفهام؛ فإنه ينقسم إلى استفهام حقيقي وآخر مجازي، والحقيقي نادر الوقوع في القرآن، ولم يرد في مواضع ذكر السماء والأرض إلا مرتين؛ الأول: في حوار بين الحواريين وعيسى –عليه السلام– في قوله تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبّكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ قَالَ اتّقُواْ اللّهَ إِن كُنْتُم مّؤْمِنِينَ) (المائدة:١١٢)، والثاني: في حوار قوم ذي القرنين معه؛ في قوله تعالى: (قَالُواْ يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىَ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً) (الكهف:٩٤).

أما المجازي فعموم الآيات قد جاءت به، وهناك عدد من الأغراض قد دار حولها الاستفهام في مواضع ذكر السماء والأرض؛ كالتقرير، والإنكار، وغيرها من الأغراض المتفرقة الأخرى، "ومزايا الاستفهام تكمن في هذه الدلالة المجازية؛ لكثرة ما فيها من الأغراض واللطائف"(١)، وهذا ما يسميه البلاغيون بخروج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الموضوعة لها إلى معانٍ أخرى تناسب المقام وسياقات الحال(٢). وفي السطور القادمة يتعرض البحث لعدد من الأغراض التي جاءت في مواضع

(١) التفسير البلاغي للاستفهام ٤/١.
(٢) انظر/ الإيضاح ٦٨/٣.

التعبير على النحو الآتي:

الغرض الأول: النفي:

قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (الملك:٣)، وهو استفهام نفي عند أهل العلم؛ أي: ما ترى في خلقها من شقوق أو صدوع أو خروق أووهن، و(من) لتأكيد النفي؛ أي: ما ترى شيئاً من تفاوت؛ أي: اختلاف وعدم تناسب(١)، وعد الطاهر هذا الاستفهام من التقرير؛ لأن هل تفيد تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى (قد) في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل؛ أي: لا تقنع بنظرة ونظرتين، فتقول: لم أجد فطورا بل كرر النظر وعاوده باحثا عن مصادفة فطور لعلك تجده(٢)، ولعله أراد تقرير النفي، وعلى هذا فهو استفهام نفي، ويردف على هذا المعنى (النفي) التعجيب من كمال خلق الله، والملفوت إليه هي السماء الدنيا التي نراها، وبراءتها من العيوب دليل على براءة السموات العلا، "وهو ظاهر من إيثار (هل) لتحقيق معنى السلامة من العيوب، أما مِن فلاستغراق النفي؛ أي: لا ترى فيها أي شقوق"(٣).

قال تعالى: (أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأَسْبَابِ) (ص:١٠)

وجاء هذا الاستفهام بعد سلسلة من الاستفهامات، وفيه ينفي الحق تعالى ملكية هؤلاء القوم للسماوات والأرض وما بينهما؛ "حتى يتكلموا في

(١) انظر/ روح المعاني ٨/١٥.
(٢) انظر/ التحرير والتنوير ١٩/٢٩ .
(٣) التفسير البلاغي للاستفهام ٢٧٠/٤.

الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها ربّ العزّة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم"(١)، وذهب الطاهر إلى أن "الاستفهام المقدر بعد (أم) المنقطعة تهكمي وليس إنكاريا؛ لأن تفريع أمر التعجيز عليه يعيِّن أنه تهكمي"(٢)، وكلام الطاهر يجعل التهكم جنسا أساسيا في الأغراض البلاغية، رغم أن التهكم لا يكون إلا ردفا للإنكار أو التقرير حسب دلالات السياق، وسياق الآية يقضي بأن الاستفهام هنا للنفي ويردف عليه التهكم والتكذيب والتعجيز والسخرية من عقولهم؛ فقابل الاستفهام في الآيات السابقة بهذا الاستفهام؛ حيث قالوا: (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا)(ص:٨)، ومما زاد من هذا التهكم أن تساءل عن نسبة هذا الكون الواسع من سماء وأرض إليه على سبيل السخرية من أحوالهم.

الغرض الثاني: التأمل:

قال تعالى: (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنّذُرُ عَن قَوْمٍ لاّ يُؤْمِنُونَ) (يونس:١٠١)، يحثهم الله تعالى وهو أعلم بهم على النظر والتأمل في هذه الآيات الباهرات من الخلق المعجز من حولهم، "من الآيات والعِبَر، وعجائب الصنع ليدلكم على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، ثم بيَّن أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء"(٣). ووضح من تذييل الآية عِظَم ما وصلوا إليه من كفر وعناد، "فالآيات الكونية على ظهورها، والنذر التشريعية على بلاغة حجتها، لا فائدة فيهما ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله عن الإيمان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات، والاستدلال بها على ما تدل عليه أكمل

(١) الكشاف ٤/٧٤.
(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٢١٧.
(٣) البحرالمديد ٢/ ٥٠١.

الدلالة من وحدانية الله وقدرته والاعتبار بسنته في خلقه"(١)، تدعو الآية في استفهام مجازي إلى التأمل في الكون والاعتبار والحض على الإيمان؛ لأن التأمل يزيد من المهابة والجلال للخالق سبحانه الذي أبدع هذا الكون. "والمراد من الاستفهام التأمل والاعتبار، ثم تفخيم المأمور بالتأمل فيه وهو ملكوت السماوات والأرض وما بينهما"(٢)، وأما قوله تعالى: (وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنّذُرُ عَن قَوْمٍ لاّ يُؤْمِنُونَ) فهي للنفي لا للاستفهام.

الغرض الثالث: الاستفهام الصوري:

قال تعالى: (وَأَنّا لاَ نَدْرِيَ أَشَرّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبّهُمْ رَشَداً) (الجن:١٠)؛ فهذه الآية من مقول الجن الذين رأوا أمورا جديدة تحدث فى الكون لم يكونوا على دراية ولا علم بأسبابها، وهم الذين يدورون في الكون ويتنقلون دون عناء، ويعرفون قديمه وجديدة، فجاء هذا الاستفهام الذي يحمل في طياته الحيرة والتردد العميق في نسبة هذا الأمر إلى الشر– وتقديم الشر إما لما رأوه من تغيرات ظاهرها الشر عندهم؛ لأن حراسة السماء ليست شرا، أو لأن الشر والإفساد هو منهج غالبيتهم –أم إلى الرشد، وفسر ابن عطية قولهم على أنهم عرفوا ما سيحل بالأرض من ظهور نبي فقال: "معناه لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدون، أم يكفرون به فينزل بهم الشر"(٣)، وهذا غير صحيح؛ لأنهم لم يعرفوا أخبار السماء في هذه المرة، أما عن الاستفهام فقد عده ابن عاشور استفهاما حقيقيا، "ومفعول

(١) تفسير المنار ٤٨٦/١١ ، وانظر/ تفسير المراغي ١٦٠/١١.
(٢)التفسير البلاغي للاستفهام ٢/٧٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣٨١/٥.

(ندري) هو ما دل عليه الاستفهام بعده من قوله: (أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا)، وهو الذي علق فعل (ندري) عن العمل، والاستفهام حقيقي، وعادة المعربين لمثله أن يقدروا مفعولا يستخلص من الاستفهام تقديره: لا ندري جواب هذا الاستفهام، وذلك تقدير معنى لا تقدير إعراب"(١).

وذهب به المطعني مذهبا آخر إذ جعله لونا من الاستفهام أسماه الاستفهام الصوري، وعرفه بقوله: وهذا الاستفهام مما أسميناه الاستفهام الصوري الذي يشتمل الكلام فيه على أداة أو أداتي استفهام، ومعناه معنى غير الاستفهام؛ لأن معناه في بعض صوره ترديد حكم بين أمرين ترديدا مستوي الطرفين دون الجزم أو ترجيح أحدهما على الآخر، ثم قال والاستفهام الذي معنا من هذا القبيل؛ فالجن أعلنت ترديد أو تفسير الأوضاع التي حلت بالبشر بعد بعثة الرسول –صلى الله عليه وسلم– بين أن تكون لشر أراده الله بهم أو لخير ورشاد، ولم يجزموا بأحد الأمرين أو يرجحوا جانبا منهما على آخر(٢). ويخلص البحث إلى أن هذا الاستفهام انطبق عليه هذا النوع من الاستفهام الذي عرفه المطعني، ويميل البحث إلى عدِّه استفهاما صوريا.

الغرض الرابع: التعجب:

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إِنّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة:٣٠)، وهذه الآية من أعظم الحوارات التي دارت بين الله تعالى وبين واحد ممن خلق وهم

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٩.
(٢) انظر/ التفسير البلاغي للاستفهام ٤/ ٣٠٣.

الملائكة، وحواره معهم دليل حب وتقريب منه لهم ورفع لشأنهم، فقد تفرد بهذه الصفة موسى –عليه السلام– من البشر، وقوله: (جَاعِلٌ) للاستقبال، وهذا اللفظ يحمل دلالة الانتهاء من العزم على الأمر، ولكن الأمر نفسه لما يقع بعد على الواقع، فكان رد الملائكة إظهارا للتعجب من جهة والخوف مما سيحدث من جهة أخرى، والذي وضح خوفهم وتعجبهم واستعظامهم الأمر أنهم أدركوا بعلمهم المحدود طغيان من يسكن هذا المكان، فذكروا الاستفهام وأرادوا منه التعجب لا غير، وإلا فهم يعلمون سعة علم الله تعالى، وقد ختمت الآية بتوضيح ذلك فقال تعالى: (قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، وقد عبر أبو السعود عن مقول الملائكة مستفهمين متعجبين، قائلا: "وإنما أظهروا تعجبهم استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التي بدت على تلك المفاسد وألغتها واستخبارا عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه –عليه السلام– من الفضائل التي جعلته أهلا لذلك ... لا اعتراضا على فعل الله سبحانه، ولا شكا في اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالا، ولا طعنا فيه عليه السلام ولا في ذريته"(١)، فصرح بالتعجب، وعرض قول الملائكة في أسلوب أكثر اعتدالا، ولم يكن أول من صرح بالتعجب، فقد كان الزمخشري ممن صرح به أيضا، يقول: تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير"(٢).

وقوله: (و هو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير) هذا وما بعده عند المعتزلة، وأما عند أهل السنة فهو تعالى يفعل الخير والشر

(١) تفسير أبي السعود ٨٢/١.
(٢) الكشاف ١٢٤/١.

ويريدهما(١)، ويرى الألوسي أن في الآية حذفا للمعادل؛ أي: أتجعل فيها من يفسد أم تجعل من لا يفسد، والواضح أن تقدير المحذوف لن يوصل إلى شيء جديد، فقد أمكن لمن سبقه فهم الآية دون الإشارة على أن شيئا ما حذف؛ وعملا بالقاعدة النحوية في أن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير، ويعلق على مذهب الحشوية الفاسد، ويرفض القول بأن الهمزة للإنكار "وعلى كل تقدير ليست الهمزة للإنكار كما زعمته الحشوية مستدلين بالآية على عدم عصمة الملائكة لاعتراضهم على الله تعالى وطعنهم في بني آدم"(٢)، أما صاحب النكت فيرى "أنها ألف استرشاد، كأن الملائكة استرشدتِ الله وسألته: ما وجه المصلحة في ذلك"(٣)، وعزا المنار الاستفهام إلى الاستغراب، "فبعد أن قال الله تعالى: (إني جاعل في الأرض خليفة) بادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها)"(٤)، ويرى البحث أن أقرب الدلالات التي يرمي إليها الاستفهام في هذه الموضع، هو أن يكون الاستفهام تعجبا من جانب الملائكة، واستعظاما لما سيكون، واستغرابا لهذا الأمر الذي لم يكونوا يتوقعونه؛ فالأصل التعجب ثم يردف عليه أغراض أخرى؛ كالاسترشاد، والاستغراب.

الغرض الخامس: الاستحالة:

قال تعالى: (بَدِيعُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنّىَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام:١٠١). خاض المشركون سواء كانوا من النصارى أو اليهود أو

(١) السابق ١/١٢٤.
(٢) روح المعاني١/٢٢١.
(٣) النكت في القرآن الكريم للمُجَاشِعِي، ص ١٣١.
(٤) تفسير المنار ١/ ٢٦١.

مشركي العرب في القول بأن لله ولدا، فأما قول النصارى فالمسيح ابن الله، وأما قول اليهود فعزير ابن الله، وأما قول مشركي العرب فالملائكة بنات الله. كل هذا رجم بالغيب؛ فكان رد القرآن حازما جازما لمن كان له قلب، فبدأ الآية بتوطئة قوية ليعرض بعدها استفهاما يلفت معناه إلى استحالة مقالتهم هذه، قال: أولا: كيف يكون له ولد؟، وثانيا: وجود الولد يستلزم وجود الزوجة (ولم تكن له صاحبة)، وثالثا: من خلق كل شيء (وخلق كل شيء)، ورابعا: وهو بكل شيء عليم، وقد مر المفسرون على الاستفهام في الآية مرور الكرام، ولكنهم كثيرا ما كانت تحمل تفسيراتهم بعدا واحدا هو الاستحالة، ومنهم من صرح بغيرها. يقول ابن عطية: "(أنى) بمعنى: كيف ومن أين، فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير"(١)، وربما أراد بقوله هذا تقرير الاستحالة، ويعبر النيسابوري بطريقة أخرى عن الاستحالة، بقوله: "والولد بهذا الطريق إنما يتصور في حق من لا يقدر على خلق الأشياء دفعة واحدة، أما الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون فذلك في حقه مستحيل"(٢). ويمكن إضافة معنى يردف الاستحالة رآه البقاعي، بقول: "فلذا حسن التعجب في قوله: (أنَّى) أي كيف ومن أيّ وجه (يكون له ولد) وزاد في التعجيب بقوله: (ولم تكن له صاحبة و خلق كل شيء)..."(٣)، وما رآه الشوكاني بعيد عن ذلك إلا أن معنى الاستبعاد الذي ذكره من الممكن أن يكون ردفا للإنكار يجعل منهما معا من قبيل الاستحالة؛ إذ يقول: "والاستفهام في (أنى يكون له ولد) للإنكار والاستبعاد..."(٤)، وما يراه البحث موافقا أن

(١) المحرر الوجيز ٢ / ٣٢٩.
(٢) تفسير النيسابوري ٢ / ٢٠٧.
(٣) نظم الدرر ٦٨٩/٢ .
(٤) فتح القدير ١٤٨/٢ .

المراد من الاستفهام هو الاستحالة، أضف إليها التعجب والاستبعاد.

الغرض السادس: الحض والتحريض:

قال تعالى: (وَهُوَ الّذِي خَلَق السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتّةِ أَيّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنّكُمْ مّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاّ سِحْرٌ مّبِينٌ) (هود:٧)، وتخبر الآية عن نسبة خلق السماوات والأرض إلى الله وقدرته، كما أفادت مدة خلقهما و تحديد الوقت الذي استغرقتاه تحديدا دقيقا، كما عرضت الآية بداية خلق العرش عرضا لا يعلمه إلا الله ولا يمكن تصوره عقلا ولا الحديث عن الكيفية، ويحثنا الحق تعالى على حسن العمل؛ لأن الابتلاء ينتج عنه إما عمل صالح أو عمل فاسد، ويعرِض لحقيقة ربما تكون في كل عصر، ورد فعل من جانب المشركين، وهي قضية البعث التي ينكرها الكافرون، وقد جاء الاستفهام في حشو الآية للحض والحث لا على العمل فحسب، وإنما على أحسن العمل.

يقول الزمخشري: "فإن قلت كيف قيل: (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت: الذين هم أحسن عملا هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر وطرح ذكر من وراءهم؛ تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم"(١)، وختم الحديث بحقيقة عظمى هي حقيقة البعث التى ينكرها الجاهلون. وعن

(١) الكشاف٢/٣٨٠.

علاقة الابتلاء بالاستفهام في الآية، يقول البقاعي: "وعلق فعل البلوى عن جملة الاستفهام لما فيه من معنى العلم لأنه طريق إليه"(١)، ومن بعده ذهب البيضاوي إلا أن البيضاوي بعد أن ذكر العلاقة بين البلوى وأحسن العمل نوه على المراد من مضمون الاستفهام بقوله: "وإنما ذكر صيغة التفضيل والاختيار شامل لفرق المكلفين باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحاسن المحاسن والتحضيض على الترقي دائما في مراتب العلم والعمل"(٢)، ولأن كتب التفسير لم تولِ اهتماما أو عناية به، وعلى أيسر التقديرات، ولو حمل التركيب هنا على الاستفهام المجازي فإن المراد منه الحض والتحريض والحث على أحسن العمل.

الغرض السابع: اللفت التقريري:

قال تعالى: (أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ مّكّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكّن لّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السّمَآءَ عَلَيْهِم مّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ) (الأنعام:٦). بينت الآية أحداث الأمم الغابرة وهلاكها بعد إنعام الله وآلائه عليهم، و تمكينه لهم، ومن نعمه عليهم أن أنزل عليهم الغيث الغزير، ومَنَّ عليهم بالنعم الكثيرة؛ فالأنهار على كثرتها تجري من تحتهم، وهذا يدل على أن الخير موصول عندهم، ولكنهم كذبوا كما كذبتم، والخطاب لكفار قريش، واقترفوا الآثام كما اقترفتم؛ فكانت النتيجة أن أهلكوا، وبدلنا غيرهم، وفي الآية دعوة إلى استحضار ما حل بمن فسق، وحاد عن الصواب، والرؤية هنا بصرية؛ لأن خطاب الكافر لابد أن تكون الرؤية فيه بصرية؛ لأنه لا يؤمن بما يقال إلا إذا كان له

(١) نظم الدرر ٥٠٦/٣.
(٢) تفسير البيضاوي ٢٢٢/٣

معادل من الواقع، أما المؤمن فإن الرؤية فيه علمية؛ لأنه يؤمن بالغيب.

ولم يحظ هذا الاستفهام بفضل عناية من الزمخشري الذي ترك الحديث عنه، وذهب أبو السعود إلى أن الآية "استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بالأنباء التي سبق بها الوعيد وتقرير إتيانها بطريق الاستشهاد وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية وهي عرفانية مستدعية لمفعول واحد"(١)، أما ابن عاشور فقد عزا الاستفهام جملة وتفصيلا إلى الإنكار، إذ يقول: "وهذه الجملة بيان للجملة السابقة، وجاء بيانها بطريقة الاستفهام الإنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة .."(٢)، فالهمزة على هذا إما للتقرير على قول من سبق من الأئمة، وإما للإنكار على رأي الطاهر، ولكن رأي الطاهر غير مقبول، والهمزة للتقرير لا للإنكار، اعتمادا على القاعدة القائلة: "إن الأسلوب الاستفهامي الذي تدخل فيه همزة الاستفهام على نفي يكون الاستفهام للتقرير"(٣). وعلى هذا فالاستفهام للتقرير؛ لأنهم علموا ما حل بمن سبقهم لما كذبوا الرسل، ويضاف إلى التقرير في هذه الآية التوبيخ والتبكيت.

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ مّا خَلَقَ اللّهُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مّسَمّى وَإِنّ كَثِيراً مّنَ النّاسِ بِلِقَآءِ رَبّهِمْ لَكَافِرُونَ) (الروم:٨). تدعو الآية إلى التفكر، كما أنها توبخ من لا يتفكر في هذا الكون الواسع من حوله، وليبدأ الإنسان باكتشاف حقيقة نفسه كيف خلق، ثم يتفكر في هذا الكون هل خلق الله كل هذا سدى أو عبثا، كما أن هذا الكون لن يستمر وجوده أبدا وإنما له أجل كآجالكم، وهو يعرِّض

(١) تفسير أبي السعود ٣ /١١٠، و/ روح المعاني٩٣/٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٣٦/٧.
(٣) التفسير البلاغي للاستفهام ٢٧٩/١.

في هذه الآيات إلى ما يزعمه الكافرون من أنهم يموتون ويحيون وما يهلكم إلا الدهر، وليس هناك من ثواب أو عقاب، وتوجيه الآية يشير إلى هذه القضية عندهم، فهم من أجل ذلك يكفرون؛ لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم –وهو الخلق الأصغر – ليتفكروا بعد ذلك في الخلق الأكبر، وما الذي يدعو إلى خلق هذا أو ذاك. يرتبط الاستفهام في هذه الآية بموضع الدراسة السماوات والأرض، ففيه تقرير بخلقهم، ودعوة إلى الإقرار بذلك، واستخدام فعل التفكر يعني التأمل الطويل والتعقل وإعمال الفكرحيث يدَّعي الكافر أن له عقلا.

وهذا الاستفهام يتردد معناه بين التقرير –وهو الأصل أو الغالب–، وبين الإنكار، ومنشأ هذا التردد هو مكان الهمزة في التركيب الذي فيه: هل مقدمة من تأخير وهذا مذهب الجمهور، أم هي قارة في مكانها وهذا مذهب الزمخشري، وهو عنده مبني على الجواز لا على الوجوب، فيكون التقرير على هذا نتاج مذهب الجمهور، أما الإنكار فهو مذهب الزمخشري وحده، والجازم لهذا الأمر أو ما يدعونا إلى اتباع أحد المذهبين هو السياق أو دلالة المقام(١)، ويؤيد الطاهر مذهب الجمهور، فيقول: "والاستفهام تعجيبي من غفلتهم وعدم تفكرهم"(٢)، ومذهب الجمهور القاضي بأن الاستفهام هنا للتقرير، يفسر دخول الهمزة على الفعل المنفي بـ (لم) دخولا مباشرا من غير فاصل، فيؤدي بها إلى نفى المستفاد من لم؛ فيقابل النفيُ النفيَ فيصير إثباتا، وعلى هذا فـ "الاستفهام للتقرير– بدلالة المقام–؛ لأن القرآن يقررهم بثبوت تلك الرؤية

(١) انظر/ التفسير البلاغي ٢٤٢/٣.
(٢) التحرير والتنوير ٥١/٢١.

العلمية، ثم ينكر عليهم عدم جريهم على مقتضاها"(١).

وعلى هذا فالاستفهام للتقرير، ولاستيفاء المقام أبعاده، تُضاف إليه أبعاد أخرى؛ كالتعجيب منهم والتوبيخ لهم. وفي الآية التالية لهذه الآية يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوَاْ أَشَدّ مِنْهُمْ قُوّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوَاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (الروم:٩).

هذه الآية تحثهم على السير والنظر في آثار من غبر، فبعد أن ذكر التفكر أردفه في هذه الآية بالسير والنظر، فبعد أن قرر لهم ووبخهم وتعجب من عدم تعقلهم في الآية السابقة، جاءت هذه الآية مقررة جهلهم وقصر نظرهم، فإذا كانت الآيات السابقة بعيدة عليهم كأنفسهم والسماوات والأرض، وهي ليست ببعيدة وإنما هو تعريض بجهلهم، فهناك آيات قريبة عليهم وفي متناول أيديهم؛ فلذلك حثهم على السير يتبعه النظر المتأمل الفاحص لمن كان قبلهم، فلم تكن لهم قوة كقوتهم، ولم تكن لهم أعمار كأعمارهم، ولم تكن لهم آثار كآثارهم، ثم كانت لهم رسل كما لهم رسل، ولكنهم أعرضوا لضعف عقولهم وقلة تبصرهم بالحق فظلموا أنفسهم؛ لأن العذاب حق عليهم.

والاستفهام هنا مرتبط بالأرض ومكمل للاستفهام السابق، والتقرير واضح فيه بإجماع الأئمة، يقول الزمخشري: "(أَوَلَمْ يَسِيرُوا) تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمّرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية"(٢)، وإذا كان الزمخشري قد صرح بإفادة التقرير في هذا

(١) التفسير البلاغي٣/٢٤٣

(٢) الكشاف ٣/٤٦٩، وانظر/ التحرير والتنوير ٢١/٥٥.

الموضع، فإن التقرير هو الصحيح عنده في هذا للموضع للتشابه الكبير بين الموضعين، وفي الآية توبيخ وتقريع لهم؛ لأنهم كثيرو الأسفار في رحلاتهم الصيفية والشتوية فكان من الواجب أن يصدقوا نبوة نبيهم؛ لأنهم رأوا ما يدعوهم إليه وما يحذرهم منه بأم عيونهم، وكان أبو حيان واضحا حين عزا هذا الاستفهام إلى التقرير؛ حيث يقول: "هذا تقرير توبيخ؛ أي: قد ساروا ونظروا إلى ما حمل ممن كان قبلهم من مكذبي الرسل، ووصف حالهم من الشدة وإثارة الأرض وعمارتها، وأنهم أقوى منهم في ذلك"(١).

وعلى هذا فالاستفهام من التقرير جملة وتفصيلا، أضف إليه التوبيخ لهم والتعجيب منهم، وإلزام الحجة عليهم بالسير والنظر والتأمل في الكون من حولهم.

وقال تعالى: (أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السّمَآءُ بَنَاهَا) (النازعات:٢٧). خاطب القرآن منكري البعث خطابا عقلانيا، فضح فيه مزاعمهم الباطلة ومجادلاتهم الساقطة؛ فمقصود الآية الاستدلال على منكري البعث؛ والاستفهام في الآية "خطاب لأهل مكة المنكرين للبعث بناء على صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة الى قدرة الله تعالى"(٢). واختيار السماء لعظمها واتساعها، يقول أيضا في قوله: (أم السماء)؛ أي: أم خلق السماء على عظمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها؛ كقوله تعالى: لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وقوله تعالى: "(أو

(١) البحر المحيط ١٥٩/٧.
(٢) تفسير أبي السعود ١٠١/٩.

ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم)"(١)، وذهب الخطيب إلى أن المراد من الاستفهام "التقريع والتوبيخ"(٢)، وذكر الطاهر مقصود الاستفهام بقوله: "والاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم"(٣)، ومن خلال عرض آرائهم الطيبة واجتهادتهم التي أنارت طريق البحث في مدلول هذه الآية وغيرها حقيقة، أن المراد من الاستفهام هنا هو التقرير ويردف عليه معان أخرى هي التقريع والتبكيت والتوبيخ.

قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (لقمان:٢٥). وردت هذه الآية على التعبير نفسه: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ) (العنكبوت:٦١)، و(الزمر:٣٨)، و(الزخرف:٩) في أربعة مواضع من الكتاب العزيز مرتبطة بالسماوات والأرض، وموضع واحد تغير السؤال إلى إنزال الماء، قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ) (العنكبوت:٦٣)، ولكن صيغة الاستفهام وطريقة الإجابة واحدة، إلا تغيرا يسيرا في موضع الزخرف. وعلى كلٍّ فإن ما يسير على هذه الآية في المراد من الاستفهام يسير على بقية الآيات، أما التكرار فإن بُعده عميق جدا؛ فلا يكَرر شيء في القرآن إلا إذا كان مقصوده عظيما، وللفت الذهن والنظر والفكر إليه، وإقامة الحجة على من أغفل قلبه عن هذا الكلام ومراده.

وفي إسناد الخلق إلى الله والإقرار به، يأتي الاستفهام لوضوح الدليل

(١) تفسير أبي السعود ١٠١/٩، انظر / روح المعاني٣١/٣٠.
(٢) السراج المنير ٤ / ٥٤٣ ، الوسيط لطنطاوي ١٥/ ٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير ٨٣/٣.

المانع من إسناد الخلق إلى غيره؛ فيضطرون إلى الإقرار بذلك، وحيث إنهم ينكرون ما اضطروا إلى الإقرار به، فإن اعترافهم بأن خالق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما هو الله تعالى يستلزم الاعتراف بأنه لا يستحق العبادة إلا الله، ومع هذا يناقضون أنفسهم بالإشراك...ثم قرر ما أقروا به من تفرده تعالى بالخالقية بتقرير أن ما فيهما من الجواهر والأعراض لله تعالى(١)، أما القرطبي فيقول في تفسير آية (الزمر) مدلول الآية:"بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الخالق هو الله، ويقول في آية (الزخرف): فأقروا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم"(٢). ومن خلال ما سبق أخلص إلى أن الأئمة المفسرين قد رضوا بتفسير معنى الآية وحمله على التقرير دون القول صراحة أنه للتقرير، وقد اطمأن البحث إلى عد هذا الاستفهام من التقرير بالفاعل والتجهيل لهم، وهو ما قال به المطعني: "من أن الاستفهام في الآيات الثلاث – (لقمان)، و(الزمر)، و(الزخرف) – للتقرير بالفاعل، أضف إليهم آيتي (العنكبوت)، وأن المسئول أقر بأنه الله قسرا؛ لأنه لا سبيل لديه ينكر الحقيقة(٣)، وفي آية (الزخرف) "قوله تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض)؛ أي: ولئن سألت المشركين من خالق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم وهذا على طريق التعجيب من حالهم أي كيف يعبدون الأصنام ويزعمون أن لله شريكا وقد أقروا أن الله تعالى خالق السموات والأرض"(٤)، وفي آية

(١) انظر/ حاشية شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ٥٦٢/٣، و/ فتح القدير ٢٤٢/٤ ، البحر المديد ٣٧٧/٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٨/١٥ .

(٣) انظر/ التفسير البلاغي ٢٥٦/٣.

(٤) تفسير السمعاني ٥/ ٧٨ .

(الزمر) "التقرير والتوكيد والإنذار بأن الله قوي منتقم لن يعجز عن جاحديه ولن يفوته الانتقام منهم"(١)؛ فيظهر التقرير جليا في آراء المفسرين في تلك المواضع، مما يجعل إطراد قاعدة التقرير في هذه المواضع المتشابهة أمرا مقبولا.

وقال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً) (المرسلات:٢٥). جاء الاستفهام في الآية في سياق التنبيه على النعم؛ فالله تعالى يذكرهم بما أنعم عليهم من قبل، على معنى ألم أفعل لكم كيت وكيت، والتنبيه على النعم مقصوده الامتنان، ورأى مقاتل جعل ليس بدلا من (لم) يقول: "أليس قد جعل لكم الأرض كفاتا لكم ... "(٢)؛ فأشار بقوله هذا إلى إفادة التقرير، وقد وضح المراد من الاستفهام وضوحا كبيرا وهو التقرير، ومن إضافاته التوبيخ، ثم الامتنان، وخص الامتنان بالأحياء، والحق أنه للأحياء والأموات، فلو لم تجعل الأرض كفاتا للأموات، لعمت الأوبئة أرجاء البلاد، ومن المفسرين من ذهب مذهبا غريبا في حمل الآية على معنيين متباينين، بجعل "الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري"(٣)، ولكن مقصود الآية تقرير نعمه عليهم، لا إنكار أفعالهم، وإن جاز التعبير فهي للتقرير الإنكاري، والبحث يميل إلى عد هذا التركيب من الاستفهام التقريري، أضف إليه الامتنان والتوبيخ.

الغرض الثامن: الإنكار:

قال تعالى: (أَمْ خَلَقُواْ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاّ يُوقِنُونَ) (الطور:٣٦)؛ فجاء الاستفهام المجازي باستخدام (أم) التي

(١) التفسير الحديث ٤/٣٢٧.
(٢) تفسير مقاتل ٣ / ٤٣٧.
(٣) إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٣٣٨.

كررت كثيرا في هذه السورة تكرارا عجيبا، وفي هذا التكرار سلسلة من الاستنكارات على هؤلاء الجاهلين، وكان هذا هو الاستفهام السابع بعد سلسلة من الاستفهامات التي جاءت كلها بـ (أم)، يقول ابن كثير في معنى الآية: "أهم خلقوا السموات والأرض؟، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك"(١)، وقد ذكر أبو السعود هذه الجملة بعد أن تحدث عن مواضع (أم) في السورة، ولما انتقل الكلام إلى قوله تعالى: (أم تسألهم أجرا) (الطور:٤٠) ذكر أن مجيء "الالتفات إلى الخطاب لتشديد ما في أم المنقطعة من الإنكار والتوبيخ"(٢)، وإن كنا نفيد من كلامه هذا ما في (أم) من معنى الإنكار والتوبيخ، و(أم) في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والكلام كناية عن إثبات أن الله خالق السماوات والأرض"(٣)، وقد أضاف بعضهم التقريع مع الإنكار، وقد ساقت أقاويلهم بهذا الأسلوب الذى تكرر فيه لفظ (أم) خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب، و(أم) فى هذه الآيات بمعنى بل والهمزة، ثم وبخهم –سبحانه– على عدم تفكرهم فى خلق أنفسهم(٤)، وقد اختص السموات والأرض بالذكر؛ لعظمها وشرفها بين المخلوقات، وبهذا يخلص البحث إلى أن الاستفهام إنكاري، ويردف عليه معاني أخرى منها: التقريع والتوبيخ والتعجب والإفحام والتجهيل.

قال تعالى: (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللّهَ بِدِينِكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٧/٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٨/ ١٥١.
(٣) تفسير البيضاوي ٢٤٩/٥ ، و/ التحريروالتنوير ٦٩/٢٧.
(٤) انظر/ الوسيط لطنطاوي ٤٦/١٤.

الأَرْضِ وَاللّـهُ بِكُـلّ شَـيْءٍ عَلِـيمٌ) (الحجرات:١٦). توجهت الآيات إلى الأعراب منكرة عليهم ادعاءهم الإيمان، فليس هم من يقول أنهم آمنوا ولكن الذي يقول ذلك الذي يعلم السر في السماوات والأرض، العالِم بكل ما يدور في الكون، وهم بالنسبة إلى الكون لا شيء، وهذا الاستفهام فيه ما فيه من الزجر لهم على ما قالوا مؤكدا إحاطة علمه بكل شيء. يقول صاحب الظلال عن علم الإنسان القاصر عن إدراك نفسه: "والإنسان يدعي العلم، وهو لا يعلم نفسه، ولا ما يستقر فيها من مشاعر، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل، لأنه لا يملك مراقبة نفسه في أثناء عمله، وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعي، فلا يبقى هنالك ما يراقبه، وحين يعمل عمله الطبيعي لا يملك أن يشغل في الوقت ذاته بالمراقبة، ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله! وهو هو الأداة التي يتطاول بها الإنسان"(١). وقد دار معنى الآية عند عدد من الأئمة حول التوبيخ والتجهيل، يقول الزمخشري: إن فيه تجهيلا لهم(٢)، ويصرح البقاعي بالإنكار إلى جانب التوبيخ والتجهيل والتبكيت، يقول: "أمره صلى الله عليه وسلم بالإنكار عليهم والتوبيخ لهم دلالة على ما أشار إليه ختام الآية إحاطة علمه الذي تميز به الصادق من غيره من جميع الخلق، فقال: (قل)؛ أي: لهؤلاء الأعراب مجهلاً لهم مبكتاً: (أتعلمون)"(٣)، ويؤثر الطاهر التصريح بالتوبيخ على الإنكار، كما أضاف التجهيل(٤)،

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٥٠.
(٢) انظر/ الكشاف ٤/٣٧٨، و/ تفسير أبي السعود ٨/١٢٤، و/ تفسير البيضاوي ٥/٢٢١، و/ المحرر الوجيز ٥/١٥٤.
(٣) نظم الدرر ١٨/ ٣٩١، روح البيان ٩/٩٦.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٦٩.

والاستفهام في الآية بإجماع الأئمة سواء من صرح به أو ألمح إليه يفيد الإنكار والتوبيخ والتجهيل والزجر، ويضيف البحث التحقير.

قال تعالى: (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ) (النحل:٥٢). تلت هذه الآية آية ينهى الله عباده عن اتخاذ آلهة غيره سبحانه، ويأمرهم بإجلاله وتعظيمه، ثم استأنف الكلام بهذه الآية التي أتى بالاستفهام في ذيلها بعد أن بين عظمته وقدرته فهو مالك ما في السماوات والأرض، واستخدام (ما) لغير العاقل تعريضا بمشركي العرب الذين عبدوا الأوثان، أو غيرهم ممن جعل الظلمة والنور إلهين، وبين تفرده بالعبادة خالصا من الشريك، فجاء النهي في صيغة الاستفهام عن اتقاء غير الله؛ يقول المراغي: "فبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله وتحذرون أن يسلبكم نعمة أو يجلب لكم أذى، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم، وأفردتم الطاعة له، وما لكم نافع سواه"(١)، ومن المفسرين مَنْ ذهب بها إلى الإنكار "الهمزة للإنكار"(٢).

وإن كانت رؤية الأئمة للإنكار مع إضافة التوبيخ وغيره إليه إلا أن المطعنى يوجه الاستفهام إلى النهي في قوله: "والاستفهام –هنا– للنهي، لا لمجرد النفي أو الإنكار تغليظا على من يتقي غير الله"(٣)، ولكن القول بالإنكار أولى فهو ينكر عليهم عبادة من عبدوه من دون الله، واتقاء غير الله تعالى، وقد بين لهم من الأدلة على وحدانيته، وقدرته الكثير من الآيات، ويردف على الإنكار التوبيخ. وعبر في الآية بالتعليم لزيادة إنكار ذلك عليهم والسخرية منهم وتشنيعهم، فهو العليم

(١) تفسير المراغي١٤/٩٢.
(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٥/ ٣٣٨.
(٣) التفسير البلاغي للاستفهام ٢/١٩٦.

فوث كل ذي علم.

الغرض التاسع: الجمع بين التقرير يليه الإنكار في آية واحدة:

ويكون الجمع بينهما بأن يأتي الاستفهام في أول الآية مرادا به التقرير، ثم يأتي استفهام آخر مرادا به الإنكار، وقد يتعدد الاستفهام في الآية الواحدة ليصل إلى أكثر من اثنين، ويمثل هذا الغرض عدد من الآيات التي جاءت متتالية في سورة واحدة هي سورة النمل؛ إذ كان المراد من الاستفهام في أولها التقرير، ثم ختمت الآية بالإنكار.

قال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل:٦٠). بدأ الزمخشري بطرح سؤال ثم أجاب عنه، بقوله: "فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في (أَمْ مَا تُشْرِكُونَ) و(أَمَّنْ خَلَقَ السماوات)؟ قلت: تلك متصلة؛ لأنّ المعنى: أيهما خير، وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة، لما قال تعالى: آلله خير أم الآلهة ؟ قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير؟ تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ... (أإله مَّعَ الله) أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له"(١)، والهمزة عنده للتقرير، أما الاستفهام الثاني فمعناه الإنكار، ويصرح أبو السعود، بدور الهمزة، بقوله: "والهمزة لتقريرهم؛ أي: حملهم على الإقرار بالحق على وجه الاضطرار"(٢)، ثم يشرح في الآية الثانية عبارة الزمخشري، ويوجه الاستفهام إلى الإنكار والتوبيخ والتبكيت، فيرى في الاستفهام الثاني نفي الألوهية، وعلى هذا يكون النفي عنده هو مقصود الآية، "والأصوب أنه للإنكار كما قال

(١) الكشاف٣/٣٧٦، و/ تفسير أبي السعود٦/٢٩٤ .
(٢) تفسير أبي السعود٦/٢٩٤ ، و/ روح المعاني٢٠/٥.

الزمخشري لا لمجرد الإنكار"(١).

ولما كانت للسماوات والأرض من قيمة في نفوس المخاطبين، فقد اختار الاستفهام بهما. وفي المحرر يأتي الاستفهام عنده على أنه من التوقيفات، والتوقيف عنده هو التقرير، يقول: "(أمن خلق) وما بعدها من التوقيفات، توبيخ لهم وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به"(٢)، ويرى ابن عادل أن التبكيت والتنبيه على غلطهم هو المراد الاستفهام الأول، أما الاستفهام الثاني فيراه بمعنى الإنكار(٣)، ومقصود الآية الثانية الإنكار من أجل ذلك قدمه، أما الجمع بينهما في تركيب واحد فلايصح، وكان الطاهر أكثر وضوحا في بيان المقصود من الاستفهام الأول فجعله تقريري، وجعل الثاني إنكاري، حيث يقول: "و(من) للاستفهام ... وهو استفهام تقريري على أن الله إله واحد لا شريك له ولا تقدير في الكلام، فالاستفهام تقرير كما دل عليه قوله في نهايته (أإله مع الله)، فهو تقرير لإثبات أن الخالق والمنبت والرازق هو الله وهو مشوب بتوبيخ ... وجملة (أإله مع الله) استئناف هو كالنتيجة للجملة قبلها؛ لأن إثبات الخلق والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه، والاستفهام إنكاري"(٤)، وبعد أن ذكر المراد من الاستفهام في الآية السابقة قال: "والاستفهامات الآتية تقرير وتوبيخ لا استرشاد، ثم أضرب وانتقل من التثبيت تعريضا الى التصريح به خطابا لمزيد التشديد، فقال: (أم) منقطعة مقدرة ببل والهمزة، و(من) موصولة

(١) التفسير البلاغي ٣/ ١٦٨.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٢٦٦.
(٣) انظر/ اللباب١٥/١٨٥.
(٤) التحرير والتنوير ٢٠/١٠-١٢.

مبتدأ خبره محذوف، وكذا فى نظائرها الآتية"(١)، فالمعنى عنده في التركيب (بل أم). وقد جمعت الآية بين التقرير والإنكار، فوضح المقصود منها نظرا لتباين المعاني فيهما، والاستفهام هنا مراده في الأولى: التقرير والتوبيخ والتقريع والإلزام وإقامة الحجة والبرهان، وفي الثانية: الإنكار وتجهيل من اتخذ من دون الله آلهة. ثم أردف بعد هذه الآية سلسلة من الآيات التي نهجت نهجها في التقرير والإنكار، كما أكملت سلسلة التوبيخ والتقريع والتجهيل التي بدأتها هذه الآية. يقول طنطاوي عن الاستفهامات المشابهة لهذا الاستفهام بأنه –سبحانه– ساق خمس آيات، وكل آية فيها ما يدل على كمال قدرته وعلمه، وكلها تبدأ بالتقرير وتنتهي بالإنكار(٢).

قال تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَـهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) (النمل:٦١). وقال تعالى: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ) (النمل:٦٢). وقال تعالى: (أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مّنَ السّمَآءِ والأَرْضِ أَإِلَـهٌ مّعَ اللّهِ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (النمل:٦٤).

الغرض العاشر: الاستفهام في أول الآية بمعنى أخبروني، وفي آخرها الإنكار:

قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىَ بَيّنَةٍ مّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاّ غُرُوراً)

(١) روح البيان ٦/ ٣٦٠ .
(٢) انظر/ الوسيط لطنطاوي ١٠/ ٣٤٥.

(فاطر:٤٠). تبدأ الآية بقوله تعالى: (قل)، والخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم–، يتبعها الاستفهام الأول، ثم سلسلة من الاستفهامات يطلب فيها إخباره عن هؤلاء الشركاء إن كانوا قد خلقوا شيئا من الأرض أم هم شركاء في السماء، أم لهم كتاب يرجعون إليه يهديهم ثم يأتي التعليق على كل هذا بأنه ما هو إلا ضرب من الباطل والخداع لأنفسهم ولمن تبعهم، وفي الآية مواجهة حاسمة لعقيدة الشرك، وإفحام بالحجة والبينة والبرهان، وتحدٍّ واضح لهم يفضح مزاعمهم وأقوالهم؛ فيصفهم بالظالمين، ويصف أقوالهم الباطلة بأنها ضرب من الغرور، وفي الآية استفهام مضمن معنى الخبر، وإلقاء الاستفهام والمراد الخبر دلالته حث الذهن على التعقل، وكثيرا ما يتبعه تساؤل آخر، وقد ورد قريب من هذا التركيب في قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف:٤).

وللعلماء حديث طويل عن الاستفهام الأول، أما الثاني والثالث فلم ينالا من التوقف حيالهما إلا اليسير، وكثيرا ما كانا مُجملَين في المراد من الآية، فالزمخشري يأتي الاستفهام الأول عنده بمعنى أخبروني، يقول: "(أروني) بدل من أرأيتم؛ لأن المعنى: أرأيتم أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة"(١)، ومثل هذا ما يقوله حقي في الاستفهام الثاني: "أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله، والمراد من الاستفهام نفى ذلك"(٢)، ومنهم من حمل المراد من الاستفهام الثالث في الآية على النفي، وفي

(١) الكشاف ٣/ ٦١٧، وانظر / المحرر الوجيز ٤/٤٤٢، و/ التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥.
(٢) روح البيان ٧/٣٥٧.

قولـه: (أم لهـم شـرك...أم آتينـاهم كتابـا)، يقـول: "اللفظ لفـظ الاسـتفهام والشـك ، والمـراد بـه النفـي"(١)، وحمـل الطـاهر الاسـتفهام الأول علـى التقريـر مخالفـا جميـع المفسـرين، وسـكت عـن التصـريح بـالمراد مـن الاستفهامين الباقيين(٢). تباينت آراء الأئمة حول المراد من الاستفهام، فبعد إجماعهم على أن الاستفهام في أرأيتم بمعنى أخبروني يذهبون إلى أنـه استفهام حقيقي، ولكنهم في النهاية يرجحون الأول لدلالـة السياق عليه. أما الاستفهامان الباقيان فهما للإنكار والتوبيخ، فهو لا يطلب في قوله: (ماذا خلقوا) تعين الجزء المخلوق لهم، ولكن المراد إنكار شركهم وتوبيخهم، وكذلك قوله: (أم لهم شرك في السماوات) فينكر عليهم اتخاذ شركاء لله وما هم بشركاء.

من خلال ما سبق يتضح أن الاستفهام قد أفاد من وجود لفظتي (السماء والأرض) فـي سـياقه؛ إذ ظهـرت قيمتـه التعبيريـة وأغراضـه المختلفـة عظيمـة الأثـر مـن خـلال التقريـر والإنكـار والنفـي والنهـي والاسـتحالة والتعجيب والحض وغيرها من الأغراض.

(١) بحر العلوم ١/ ٢٢٧.
(٢) انظر/ التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٢٤.

المبحث الثالث

(القَسَمُ)

يشير استعمال القسم عامة إلى إرادة تقوية المعنى وتأكيده، وأقسام القرآن الكريم جاءت لتدل على تعظيم الله تعالى لمخلوقات تعظيم من يعرف قيمتها وحقيقتها ودورها الذي خلقت من أجله، وذلك لتسليمها له وطاعتها له وتسبيحها على الدوام، "والقَسَمُ –بالتحريك– اليمين، وقد أَقْسَم بالله واسْتَقْسَمه به وقاسَمَه حلَف له"(١)، فالقسم يأتي في اللغة بمعنى الحلف واليمين، كما يأتي بمعنى الشهادة، وهذه الأخيرة وإن لم تحمل أركان القسم إلا أنها تؤدي المعنى نفسه الذي يؤديه، وهو التقوية والتأكيد؛ فالغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي وإثبات(٢)، كما يدعو القسم الذهن إلى التفكر فيمن أقسم به، وما أخبر به من أخبار مهمة. وقد أقسم سبحانه بثلاثة أشياء:

أولا: بنفسه، كما في قوله: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (الذاريات:٢٣).

ثانيا: بفعله، كما في قوله: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) (الشمس:٥– ٦).

ثالثا: بمفعوله، كما في قوله: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) (النجم:١)(٣).

يقسم الله تعالى في كثير من آياته ببعض مخلوقاته، وهي من الأشياء التي وقف العلماء حيالها طويلا إلا أنهم يرون أن إقسامه –تعالى– ببعض مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته على وجه يوجب

---

(١) لسان العرب (مادة: قسم).

(٢) انظر/ شرح المفصل ٩٠/٩، و/ أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني ص ١٩٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٤٢/٣ .

الاعتبار ويدل على توحيده(١)، وتأتي الواو دون غيرها من أدوات القسم في مواضع التعبير عن السماء والأرض؛ وذلك لأنها تتصدر كل قسم، وأدوات القسم وحروفه هي: الباء، وكذلك التاء، ثم الواو وهو الأكثر استعمالا من بين حروف القسم، والأصل في الواو أن تأتي في درج الكلام للربط والعطف، فإذا جاءت للقسم، فإن لها الصدارة، في مقام التوثيق لما يسبق إنكاره، أو الإقرار والشهادة، و"قد خرجت–الواو– عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي، هو اللفت بإثارة بالغة إلى حسيات مدركة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يمارى فيها، أو تقرير غيبيات ليست من الحسيات والمدركات"(٢)، فينصب التركيز في القسم بها على تأكيد المعنى المراد مخاطبة السامع به. وتأتي الحاجة إلى القسم من سياق الحال، واحتياج المقام إليه؛ كأن يكون السياق في حاجة إلى القسم فيه؛ ليكون مؤكدا لتلك الحقيقة، أو أنه أسلوب يُعرض لحاجة السامع إليه من تقوية المعنى حول تلك الظاهرة أو حتى مجرد التفكر في سبب القسَم ومن ثَمَّ التفكر في المقسَم به وصولا إلى المقسِم، ويتضح من استقراء الآيات الواردة فيه مجيئه مع الإنكار؛ ليشير إلى إقامة الحجة والبرهان على من وصَلَهُ القسم، كما يبين القسم جلال المقسم به وعظمته عند الله تعالى، ودور القسم لا ينصب على إحداث التصديق؛ فقد يكون باعثا على التفكر والتأمل، يقول د. أحمد بدوي: "وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا في حمل المخاطب على التصديق، فإنه كثيرا ما يوهن في النفس الفكرة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث على

(١) انظر/ التبيان في أقسام القرآن ص١، و/ نظم الدرر ١٨/ ٤٤٧.
(٢) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة لغوية بيانية ص٢٤٤– ٢٤٨.

التفكير القوي فيما ورد من أجله"(١).

والقسم لفظه لفظ الخبر ومعناه الإنشاء والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه، وليس بإخبار عن شيء وقع أو لا يقع، وإن كان لفظه المضي أو الاستقبال، وفائدته تحقق الجواب عند السامع، وتأكّده ليزول عنه التردد في الأمر، وقد استفتح بالقسم في خمس عشرة سورة من القرآن، وذلك يدل على أهميته الكبيرة في ثِقل المعنى، والقدرة على الاستهلال القوي، خاصة وأن كل الآيات التي ورد فيها القسم بالسماء والأرض نزلت في مكة(٢). وارتبط القسم بالسماء والأرض؛ فجاء القسم بالسماء ست مرات، منها ثلاث مرات غير مقترنة بالأرض، ومرتان اقترنت بها، ومرة ذكرها بالسقف، أما الأرض فقد ذكرت مرتين مقترنة بالسماء، وفي موضع آخر أقسم برب السماء والأرض.

وتأتي دراسة القسم في هذا المبحث في أربعة محاور:

الأول: الاستهلال بالقسم والاستفتاح به.

الثاني: القسم في حشو السورة.

الثالث: قسم الله تعالى بنفسه، وارتباط ذلك بالسماء والأرض.

الرابع: القسم بالسقف مرادا به السماء.

الأول: الاستهلال بالقسم والاستفتاح به:

قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) (البروج:١). يستهل القسم سورة البروج، وهي سورة تحدثت عن أصحاب

---

(١) من بلاغة القرآن د.أحمد بدوي ص١٧٠.

(٢) انظر/ البرهان في علوم القرآن ١٧٩/١ ، و/ السابق ٣٧٤/٢ ، و/ الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤٠ ، ٤١.

الأخدود وما حل بهم، و البروج ما في السماء من زينة بادية وغير بادية؛ "هي منازلها أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السماء، ثم أقسم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة وهو المقسم به...والإقسام به عند من آمن بالله؛ كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان"(١)، واتصال القسم هنا مع السماء ذات البروج للتهديد والوعيد لأهل مكة الذين يعذبون المؤمنين بالله تعذيبا يشبه تعذيب أصحاب الأخدود؛ فأتى بالسماء إشارة إلى أن في الكون آيات تدل على قدرته وعظمته وسطوته، ثم أعقبها بأن هناك يوما موعودا يفصل فيه بين الناس، ثم أعقب ذلك كله بما حل بأصحاب الأخدود، واختلف في جواب القسم على أقوال فقد يكون محذوفا يدل عليه قوله: (قُتِلَ أصحاب الأخدود)، كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون، يعني كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود، أو أن جواب القسم في قوله تعالى: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)، وقد يكون (قُتِلَ) جوابا للقسم، وحذفت اللام، والأصل: (لقتل)؛ وحسُن حذفها؛ للطول، وقد يكون قوله تعالى: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) جواب للقسم، وللتأكيد على هذا المعنى أتى بكلام معترض ما بين القسم وجوابه ، دل من خلاله على تفخيم شأن المقسم به (٢)، والقول بالحذف كلية يدل عيه دليل هو أقوالها؛ لتعظيم الهول، ويفيد ذلك ما أراده الزمخشري من أن كفار مكة، سيصيبهم ما أصاب أصاب الأخدود من قبل.

وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) (الطارق:١)، والطارق مأخوذ من "طرق

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص ٨٩.

(٢) انظر/ الكشاف ٤/ ٧٢٩ ، و/ بحر العلوم ٣/ ٥٤١ ، و/ اللباب ٢٠/٢٤٧، و/ الوسيط لطنطاوي ١٥/ ٣٥٣.

القوم يطرقهم طرقا وطروقا جاءهم ليلا فهو طارق... والطارق النجم، وقيل: كل نجم طارق؛ لأن طلوعه بالليل وكل ما أتى ليلا فهو طارق"(١)، فكان المعنى القديم هو أن كل من يأتي ليلا؛ فهو طارق، فلما جاء القرآن تغير معناه الدلالي كما وضُح من خلال التشويق إليه، بقوله: (وما أدراك ما الطارق)، وذكرُ السماء جهة العلو يوحي بأن الطارق شيء في السماء، ولم يُرِد القرآنُ في هذا الموضع غموض اللفظ بترك معناه، ولكن وضَّحه بقوله: (النجم الثاقب)، فاتضح أن المراد بالطارق أنه نجم لا غير، ويقول ابن القيم: "والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته وسمى النجم طارقا؛ لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس أو أهله ليلا"(٢)، والسر في القسم بالكواكب للدلالة على أن لها خالقا مدبرا منظما لها، وتعظيمه تعالى قَدْر السماءِ في أعين الخلق؛ لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته، وفيها خلق الجنّة، فأقسم بها وبالطارق(٣)، ويقسم الله تعالى بهذه الأشياء العلوية على أن الله تعالى يجعل لكل نفس حافظا.

ومقصود القسم في الآية الإشارة إلى قدرته تعالى وتعظيم مخلوقاته، وإحكام قدرته وعلمه في خلق هذا النجم وغيره، وكذلك في جعل حافظ لكل نفس، فاحتاج المقام إلى ذكر القسم تأكيدا للمعنى وتقوية له.

الثاني: القسم في حشو السورة:

---

(١) لسان العرب (مادة : طرق).

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٠٠.

(٣) انظر/ البحر المديد ٧/ ٢٨١، و/ الوسيط للزحيلي ٣/ ٢٨٥٩.

قال تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) (الذاريات:٧)، وتدل حروف كلمة الحبك على إحكام الشيء في امتداد واطراد وإتقان وإحكام وصنع دقيق، وخلو من مواضع النقص والخلل والضعف، لكل ناظر إليها، وفي كل وقت منظور فيه إليها، وفي هذه الآية "يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف، مضطرب لا قوام له ولا قرار، ولا ثبات له ولا استقرار"(١)، وهو قسم لتحقيق اضطراب أقوالهم في النبي والإسلام، وقد دل دلالة واضحة على جهلهم وعنادهم. أما جواب القسم فقوله تعالى: "(إنكم لفي قول مختلف)، وهو خطاب عام لجميع الناس بل للثقلين مؤمنهم وكافرهم، وهذا "القول المختلف: أقوالهم في القرآن وفي النبي وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب"(٢). وهناك علاقة بين أقوالهم واستعمال الحبك الذي هو أصله الطرائق المختلفة، يقول أبو السعود: رأيًا يراه البحث جامعا لهذه العلاقة، يقول: "والنكتة فى هذا القسم تشبيه أقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها"(٣)، كما تجد دلالة أخرى من خلال معنى الآية، تؤكد على عظيم قدرته تعالى في إحكام وإتقان خلق السماء ذاتها؛ فيكون القسم أيضا بالسماء ذات الطرائق الشديدة الإحكام والبنيان المتقن(٤).

وقال تعالى: (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا)

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٧٦.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ٢٨٨.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ١٣٧.
(٤) انظر/ صفوة التفاسير ٣/٢٥١.

(الشمس:٥-٦)، جاء القسم في حشو سورة من السور القليلة التى حوت عددا غير مسبوق من الأقسام التي أقسم الله تعالى هنا بها؛ فالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس، وأتى مع كل واحد من هذه العناصر الكونية بما يوافق حاله، ولقيمة إطالة القسم أهمية تكمن في إحداث الشوق لدى السامع، وتدفع عنه الملل وتذهب بذهنه كل مذهب "والقرآن لا يلجأ إلى القسم إلا في الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وإثبات، فقد يطيل القسم ويطيل معه الشوق"(١)؛ وقد ربط القرآن البناء بالسماء؛ لأنها الأعظم بناء على الإطلاق من كل مخلوقات الله تعالى، وكذلك الأرض المتسعة التي تعيش عليه الكائنات؛ فهي الأصلح حياة للبشر واتساعا في هذا الكون، وفي ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق؛ فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفا لهذا العالم والطحو هو مد الأرض وبسطها وتوسيعها(٢).

اختلفت الأقوال حول قوله تعالى: (وما بناها) "وقد تقدَّم أنَّ جماعة من أهل الأصول؛ قالوا: التقدير: ورب الشمس، ورب سائر ما ذكر إلى تمام القسم، واحتج قوم على بطلان هذا القول بأن في جملة هذا القسم: (والسمآء وَمَا بَنَاهَا)، وذلك هو الله تعالى، لا يجوز أن يكون المراد منه تعالى أن يقدم قسمه بغيره على قسمه بنفسه، فإذن لا بد من تأويل، وهو أن (ما) مع ما بعده في حكم المصدر، فيكون التقدير: والسَّماءِ وبنائها"(٣). على حين يرى الزمخشري غير ذلك؛ فما هنا اسم موصول

(١) من بلاغة القرآن، د.بدوي طبانة، ص ٢٤٠.
(٢) انظر/ التبيان في أقسام القرآن ص ١٩.
(٣) اللباب١٦/ ٤١٠، و /الكشاف ٤/ ٧٥٩، وانظر/ تفسير الماوردي ٦/ ٢٨٢.

بمعنى مَنْ، والمراد بمن بناها: الله –تعالى– وأوثرت على مَنْ التى تأتى للعاقل كثيرا؛ لإشعارها معنى الوصفية؛ أى: وحق السماء، وحق القادر العظيم الذى بناها وأوجدها على هذه الهيئة الجميلة الدقيقة ... وقوله –تعالى–: (والأرض وَمَا طَحَاهَا)؛ أى: وحق الأرض ومن بسطها من كل جانب، وجعلها مهيأة للاستقرار عليها(١)، وهناك رأي ثالث يقول: والسماء وبنائها، قاله قتادة (٢)، ويميل البحث إلى قبول كلام الزمخشري؛ لأن فيه توكيدا للقسم وتقوية له، كما أن التركيب (وما كذا) تكرر ثلاث مرات، والجواب محذوف؛ ليكون أبلغ في تفخيمه، ويقول الزمخشري: "فإن قلت: فأين جواب القسم؟ قلت: هو محذوف تقديره: ليدمدمنّ اللّه عليهم؛ أى: على أهل مكة لتكذيبهم رسول اللّه –صلى اللّه عليه وسلم– ، كما دمدم على ثمود"(٣).

قال تعالى: (وَالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ) (الطارق:١١، ١٢). يقسم الله تعالى في حشو سورة الطارق بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصدع على أن هذا القول المنزل على رسوله قول فصل، وحق مطلق كله لا ريب فيه، والمراد من قوله: ذات الرجع؛ أي: المطر؛ لأنه يرجع إلى الأرض بعد صعوده. "ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الأزمان ترجعه رجعا؛ أي: تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجي لما كان أظهر الخير المشهود بالعيان، فأقسم سبحانه

(١) انظر/ الكشاف٤/ ٧٥٩ ، وانظر/ تفسير مقاتل ٤/ ٧١١ ، و / التفسير الكبير ١٣/ ١٧٦، و / الوسيط لطنطاوي ٤١٢/١٥.
(٢) النكت والعيون ٢٨٢/٦.
(٣) الكشاف ٤/ ٧٦٠.

بالسماء ذات المطر والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته"(١).

وفي وصف السماء بالرجع، والأرض بالشق، "عند الإقسام بها على حقيّة القرآن الناطق بالبعث؛ للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده، وهو السر في التعبير عنه بالرجع والصدع؛ لأنَّ في تشقُّق الأرض بالنبات محاكاة للنشور، حسبما ذكر في مواضع من القرآن"(٢)، والسر في مجيء القسم هنا بالرجع والصدع مع القرآن إشارة إلى هذا الماء الذي يرجع ويعود مرة بعد مرة؛ ليكون سببا في صدع الأرض، كالقرآن الذي تحيا به النفوس؛ فهو ينزل آية بعد آية ليحيي به قلوبا ميتة.

الثالث: قسم الله تعالى بنفسه، وارتباط ذلك بالسماء والأرض:

قال تعالى: (فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) (الذاريات: ٢٣). ذكر هذا القسم بعد أن ذكرالأرض وما فيها من عبر للمعتبرين، وذكر النفس وما فيها من آيات للمتفكرين، ثم أتبعها بذكر السماء؛ فجاء القسم قويا معبرا بعد مؤكدات كثيرة دلت على قدرته وعظمته وجليل صنعه ليؤكد على ربوبيته لهذا الكون، فالكون لم يوجد نفسه، وإنما أوجدته إرادة قادرة، عظيمة، ودخلت الفاء على الواو للقول: إنَّ ما توعدون لحقٌ بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين، أوأنها دخلت للعطف على قوله: (والذَّاريات) مع إعادة المقسم عليه لوقوع الفَصْل، و

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٠٦.
(٢) البحر المديد ٧/ ٢٨٣ ، و/ روح المعاني ١٥/ ٣١١.

سبب تخصص الآيات بالمُوقنينَ، فيكون الجواب: "لأن القَسَمَ إنما يكون مع المعَانِدِ في البرهان، فهو لا ينتفع بالآيات وإنما ينتفع بها المُوقِنُونَ؛ فلذلك أقسم ههنا فقال: (فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ)، أو أنها خصصت باعتبار المنفعة بها(١)، وقد سبق هذا القسم قسم بالذاريات أول السورة، وهي مخلوق من مخلوقاته، ثم ثنَّى بهذا القسم للانتقال من العوالم الأرضية إلى العوالم العلوية، أما ذكر الموقنين فلا يؤمن بالآيات إلا الموقن.

وقصة الأصمعي مع الرجل الذي سمع هذا القسم، أنه قال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؛ قالها ثلاثاً وخرجت معها رُوحه، وهذه القصة تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه، والقسم بذاته، وبصفته: رب السماء والأرض مما يزيد الحقيقة المقسم عليها جلالاً(٢)؛ لإظهار السماء والأرض في هذا السياق قيمة دلالية "فإظهارها دون ذكر ضميرهما؛ لإدخال المهابة في نفوس السامعين بعظمة الرب سبحانه"(٣)، وقد عضد القسم الخبر، كما عضده التمثيل الذي قرب المعنى؛ ليكون ذلك حجة عليهم، وليكون الخطاب عاما بالموقنين مستخدما القسم في حالهم، وغيرهم مستخدما التمثيل في حالهم قائلا: "إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق"(٤)؛ حيث يدلل بهذا القسم على قضية أكبر من الرزق هي قضية التوحيد، وإن كان الرزق هو أحد محاورها.

---

(١) انظر/ اللباب ١٨/ ٧٦، وانظر/ التفسير الكبير ٢٨/ ١٧٣.
(٢) انظر/ الكشاف ٤/ ٤٠٠، في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٨٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢٦ / ٣٥٤.
(٤) التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٥، ١٧٦.

الرابع: القسم بالسقف مرادا به السماء:

قال تعالى: (وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ)

(الطور:٥)، المراد بـ(السَّقْفِ) هو السماء وسماها سقفا؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت، وهو واضح من قوله: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) (الأنبياء:٣٢)، ومناسبة القسم بها أنها مصدر الوحي كله التوراة والقرآن، وتسمية السماء على طريقة التشبيه البليغ، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها؛ "لأنها أمور عظام، تُنبئ عن عِظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه، وحكمته الدالة على إحاطته -تعالى- بتفاصيل أعمال العباد، وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره، التي من جملتها: الجملة المُقسَم عليها"(١). وهذه مخلوقات أقسم الله بها؛ تنبيهاً منها وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها(٢)، والعلاقة بين (الطور، والكتاب، والبيت، والسقف، والبحر) أنها تعد أكثر مخلوقاته جلالا وعظمة، فأتى بها هنا؛ ليؤكد على وجود العذاب، وليزيد في التهديد والوعيد على وقوعه، مع استبعاد وجود من يستطيع دفعه، وهو كلام جمهور المفسرين، وربما أقسم بالسقف ولم يقسم بالسماء؛ لأن سياق آيات القسم السابقة يدور حول التذكير لا التأنيث، كما وافق القسم ذكر الحماية والعلو للسماء، وهما من أهم فوائدها، وناسب أيضا -القسم بالسقف المرفوع- التهديد والوعيد بمور السماء وتسيير الجبال، وهي مشاهد عظيمة إذا ما ربط الإنسان بينها وبين السقف الذي يعلوه. ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم لم يفرد الأرض بالقسم، فلم تأتِ إلا مقترنة

(١) االبحر المديد ٥/ ٤٨٦، و/ التحرير والتنوير ٣٩/٢٧.
(٢) انظر/ المحرر الوجيز ٥/ ١٨٥ .

بالسماء، ولم تأتِ السماء إلا مفردة؛ للدلالة على الجنس فالمراد بالسماء هنا كل ما علا من سماوات وأجرام وغيرها فالقصد إلى الكون كله، كما أن الجمع لن يفيد ما أفاده الإفراد في التعبير عن سعة الكون، وقد أكثر سبحانه في كتابه الكريم الأقسام بالسماوات؛ لأن أحوالها في مطالعها ومغاربها ومسيراتها عجيبة"(١)، ويقول ابن القيم عن قيمة القسم بالسماء وعظمته: "فإنها من أعظم آياته قدرا وارتفاعا وسعة وسمكا ولونا وإشراقا وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم وبها انتظامه..."(٢).

(١) تفسير النيسابوري ١٤ / ٢٠٨.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ٢٦٤.

الفصل الرابع

التنويع في خصائص البناء التركيبي

تؤتي الكلمة ثمارها المنشودة إذا روعي موقعها من السياق؛ فتتضح بذلك دلالتها، وتعبر التعبير المراد منها، ولا ينظر إليها مفردة دون تركيب كما يُنظر إليها فيه، وقد فطن عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك في قوله: "فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة"[1]، فالنظر إليها مفردة يدل بها على معناها المجرد، فإذا وضعت في تركيب تغير معناها؛ لتؤدي عند ضمها إلى غيرها معنى جديدا يخدم التركيب الذي وضعت فيه.

فالكلمة المفردة –كما نظر إليها عبد القاهر– لها دلالة على معناها الذي وضعت إزاءه، ولكن الإفادة ليست في ذاتها فمعناها المفرد قد ارتسمت صورته في الأذهان قبل وضعها، فوظيفتها ليست بالتعريف بالمعاني المفردة لها، بل هي أن تضم تلك الكلمة مصطحبة تلك المعاني في بناء لغوي تتفاعل معه فينتج من تفاعلها معنى آخر أو

(١) دلائل الإعجاز ١/٤٤.

معان أخرى هي ما يطلق عليها عبد القاهر (الفوائد) ومقتضى ذلك أن الفائدة هي نتاج الدلالة التركيبية لا الإفرادية[1].

من هنا يأتي تنوع البناء التركيبي تبعا لتنوع وضع الكلمة فيه؛ فتقديم كلمة على أخرى، أو ذكرها في سياق وحذفها في آخر، أو الالتفات من خطاب إلى خطاب ومن أسلوب إلى آخر؛ كالتحول من الخطاب إلى الغيبة أو العكس، إلى غير ذلك من سمات التنوع التركيبي التي تحاول جميعها إيصال الكلام إلى السامع في عذوبة وحسن تأليف، والقرآن الكريم أوعى الكلام بهذه القيم؛ لذلك سوف يتضح من خلال هذا الفصل قيمة التنوع التركيبي في مواضع التعبير عن السماء والأرض، ويتم تطبيق هذه الظواهر على النحو الآتي:

المبحث الأول: التقديم والتأخير.

المبحث الثاني : الالتفات.

(١) انظر/ المعنى في البلاغة العربية، ص ٦٣-٦٤.

المبحث الأول

(التقديم والتأخير)

يأتي الاهتمام بالتقديم والتأخير في الجملة؛ لدوره الرئيس في الزيادة من قيمتها التعبيرية، ووقعها على النفس، وجرسها في السمع، ودورها الذي تؤديه في المعنى، ويرتبط التقديم والتأخير بالألفاظ والمعاني على السواء.

يقول عبد القاهر: "إن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وإن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس؛ لذلك يقول الزملكاني: إن التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان ، ومن حيث إن الألفاظ تبع للمعاني، والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة هي: العلة، والذات، والشرف، والرتبة، وأضاف أيضا إليها الخفة"(١). وهذا النوع من البلاغة "يكسب الكلام جمالا وتأثيرا؛ لأنه سبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها إلى المخاطبين، كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلم، وصدق مشاعره"(٢)، وهو باب مهم من أبواب بلاغة اللسان العربي، وله قيمته الكبرى في الكلام البليغ؛ فهو يرشد السامع والقارئ إلى ما يريده بأقصر الطرق؛ فهو "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف"(٣).

وقد اهتم القرآن الكريم به أبلغ اهتمام؛ فأحسن وضع اللفظة في موضعها الذي تعبر به عن المراد ومقتضى الحال، فإذا وافقها التقديم قدمها وإذا وافقها التأخير أخرها حسبما يريد السياق، كما أنه "لم يكتف بمراعاة السياق الذي

(١) دلائل الإعجاز ١/ ٥٦، وانظر/ البرهان الكاشف في إعجاز القرآن، ص ٢٩٠.
(٢) صفاء الكلمة، ص١٩٤.
(٣) دلائل الإعجاز ١/ ١٠٦.

وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة، ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله"[١].

والدلالة والتركيب شأنها شأن المعنى ولفظه؛ فتغير الدلالة ينتج في المقام الأول عن ذلك النظام التركيبي، مما يعني "أن أي تغير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى آخر"[٢]؛ فالعدول عن الطريقة التركيبة المعروفة والمسلم بهيئتها إلى طريقة أخرى لا يكون إلا لغرض قوي دفع إلى ترك الأصل؛ لا أقول إلى فرع ولكن إلى أصل آخر، فمتى وافق هذا العدول ارتياح السامع، وأعطاه بغيته من الفهم لما يراد فقد أصاب؛ إذ "من الصحيح فعلا أن مجرد المخالفة ينبئ عن غرض ما، وأن هذا الغرض قد يكون توجيه التفات السامع إلى كلمة من الكلمات عن طريق إبراز هذه الكلمة إبرازا يتحقق عنه تأثير ما، وهي فكرة قررها باسكال حينما صرح بأن الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف، وأن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة"[٣]؛ فاختلاف التركيب لابد أن يوصل إلى تأثير مختلف. وتتمتع مواضع التعبير عن السماء والأرض بثرائها بهذا اللون البلاغي؛ فالعدول عن الترتيب التركيبي واضح في هذه المواضع، كما أن العدول بتقديم كلمة على أخرى في موضع، ثم تقديم المتأخرة في موضع آخر أمر يكثر فيه.

وباستقراء المواضع التي وردت فيها السماء مفردة أو جمعا يظهر أنها متقدمة على الأرض عند اجتماعهما أو عطفهما، ولاشك أن لذلك قيمة بلاغية ثابتة،

---

(١) التعبير القرآني للسامرائي ص ٥٤.
(٢) البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، ص ٣٣١.
(٣) نظرية اللغة في النقد العربي د.عبد الحكيم راضي، ص٢١٣ .

أو أن لهذا التقديم هدفا في إقرار ما ينتج عن هذا التقديم من أغراض جمة؛ فأكثر هذه التقديمات يكون في تقديم السماء على الأرض عند اقترانهما؛ وهو ما يدعو إلى القول بأن هذا التقديم يعد ظاهرة؛ فقد قدمت السماء على الأرض في كثير من آيات القرآن الكريم حيث إنهما كثيرا ما تذكران في سياق آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته، وربوبيته ، ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها وقمرها، وبروجها، واستغنائها عن عمد تقلها، أو علاقة ترفعها، ولهذا أمر الله تعالى أن يرجع البصر فيها كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها، وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض[1]. ونقل الواحدي عن مقاتل أن خلق السموات مقدم، واختاره كثير من المحققين لتقديم السموات على الأرض في معظم الآيات التي ذكرا فيها، واقتضاء الحكمة تقديم خلق الأشرف، والسماء أشرف من الأرض ذاتا وصفة[2].

وفي مواضع التعبير عن السماء والأرض عدة تغيرات في النسق التركيبي بواسطة التقديم والتأخير منها:

- تقديم السماء على الأرض :

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (سبأ:٣).

(١) انظر/ بدائع الفوائد ١/ ٧٤، و/صفاء الكلمة، ص ٢١٤، ٢١٥.
(٢) انظر/ روح المعاني ٨/ ٤٦٨.

بدأت الآية بقول الكافرين وإنكارهم القيامة (لا تأتينا الساعة)، فكان الرد بتأكيد إتيانها؛ لعلمه بذلك، وعلمه بكل ما يدور في الكون، فقدم السماوات على الأرض "فوقع هذا الترتيب في ضمن قول الكفار: (لا تأتينا الساعة قل: بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) كيف قدم السموات هنا؛ لأن الساعة إنما تأتي من قبلها، وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها فقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) (الزمر:٦٨)"[١]. وسبب التقديم "أن في هذه السورة تقدم ذكر السموات في أول السورة (الْحَمد لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض)، وموافقة لقوله (له ما في السموات وما في الأرض)"[٢].

وتقديم السماوات على الأرض إضافة إلى ما سبق؛ لتأكيد علمه بالساعة والغيب واختصاصه بهما؛ فهو وحده الذي يعلم ما يدور في السماوات والأرض على السواء، وفي تقديم السماوات لون من التحدي والتعجيز بمعرفته تعالى وعلمه الواسع.

- تقديم الأرض على السماء:

وقال تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ عَن رّبّكَ مِن مّثْقَالِ ذَرّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السّمَآءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلآ أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مّبِينٍ) (يونس:٦١).

(١) بدائع الفوائد ١/ ٧٤، وانظر/ صفاء الكلمة، ص ٣١٥.
(٢) أسرار التكرار في القرآن ٢٠٨، وانظر/ تفسير النيسابوري ٥/ ٤٨٥.

ذكَّر تعالى عباده بفضله، وما يجب عليهم من شكره ، عطف على ذلك تذكيره لهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم كلها، وبكل ما في العوالم علويها وسفليها؛ ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته[١]، وليعلموا أنه تعالى يعلم دقائق الأمور، فلا تخفى عليه خافية؛ أكد ذلك بهذه الآية التي ركزت على علمه بأصغر الأمور، والأحوال.

ويقول الزمخشري في تقديم الأرض " فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله في سورة سبأ: (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) (سبأ:٣) ؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: (لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ) لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية"[٢]، ويتناسب تقديم الأرض على السماء أيضا؛ "لأن النور والتلاوة والعمل في الأرض"[٣].

والواضح أن التقديم هنا لمناسبة ذكره تعالى لشئون أهل الأرض، وليكون أدعى للإقناع بعلمه تعالى بأحوالهم وأعمالهم؛ وذلك لأن الكلام فى حال أهلها، والمقصود إقامة البرهان علي إحاطة علمه تعالى بتفاصيله؛ فلكون المخاطبين فيها، ومثله آل عمران، وإبراهيم، وطه، والعنكبوت[٤]، كما قدمت الأرض في قوله تعالى: (تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى) (طه:٤)، والآية خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يخبره فيها في واحد

(١) انظر/ تفسير المنار ١١/ ٣٣٨.
(٢) الكشاف٢/ ٣٥٥، وانظر / اللباب ١٠/ ٣٦٤، و/ البحر المديد ٢/ ٤٨٣، و / البحر المحيط ٦/ ٧٩، و/ المثل السائر ١/ ٢٣٢، و/ خصائص التعبير القرآني ٢/ ١٣٣.
(٣) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة، ص ٢٠٦.
(٤) انظر/ تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٨، و/ روح المعاني ٦/ ١٣٧، و/ أسرار التكرار في القرآن، ص ١٤١.

من مظاهر الرحمة الربانية بأن القرآن تنزيل من الله تعالى خالق الأرض والسماوات العلى، وجاءت الآية بتقديم الأرض على السماء "وتقديم الأرض؛ لكونها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات"[١]، فقربها وظهورها هو الدافع إلى تقديمها.

ويرى البقاعي أن سبب التقديم للعناية في قوله: "ولما قدم الأرض إعلاماً بالاعتناء برحمها بالترفق بسكانها؛ ليملأها بالإيمان منهم تحقيقاً لمقصود السورة تشريفاً للمنزل عليه"[٢]، فالتقديم عنده للاعتناء بها وبأهلها، وتشريفا لنبيه صلى الله عليه وسلم الذي هو منها ، وخطاب التسلية له، والسبب في وصف السماوات بالعُلى،؛ تأكيد الفخامة ، والدلالة على عظم قدرة خالقها الذي خلقها بهذا العلو ، وما يستتبع علوها من قيم وأسرار يكشفه الله لنا، ويخفي ما يشاء عنا، وكشف المعجزات المتتاليات التي أخبر عنها القرآن إعجاز يحسب للقرآن، ويؤكد على كونه المعجزة الكبرى، كما يتضح أن المعنى اقتضى التقديم كما اقتضاه مراعاة الفاصلة؛ لأن لمراعاة الفاصلة قيمة تردف قيمة التقديم للغرض البلاغي في كونها أقرب، أو للاهتمام بأهلها، فمقتضى الإعجاز أنه "ما من فاصلة قرآنية لا يقتضى لفظها في سياقه دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه، قد نتدبره فنهتدي إلى سرَّه البياني، وقد يغيب عنا فنْقرّ بالقصور عن إدراكه"[٣].

وقدمت الأرض أيضا في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ) (آل عمران:٥)، الآية تؤكد علم الله تعالى لكل ما يحدث سواء

(١) روح البيان ٥/ ٣٦٣.
(٢) نظم الدرر ١٢/ ٢٦٨، وانظر/ البحر المديد ٣/ ٣٧٣، و/ روح البيان ٥/ ٣٦٣.
(٣) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢٧٨.

في الأرض أو في السماء، فلا تخفى عليه خافية؛ أي: "قد علم ما يريدون وما يَكيدون وما يُضَاهون بقولهم في عيسى؛ إذ جعلوه ربًّا وإلهًا، وعندهم من علمه غيرُ ذلك، غِرّةً بالله وكفرًا به"[١].

وتقديم الأرض على السماء؛ للعناية بأحوال أهلها بعدما تقدم من ذكر وحدانيته وإنزاله الكتب عليهم، وتهديده ووعيده لمن خالف شرعه، ويقول أبو السعود: "وتقديم الأرض على السماء؛ لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها"[٢]، كما أن ابتداء الذكر بالأرض " ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم؛ لأن أشياء الأرض يعلم كثيرا منها كثير من الناس، أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلا عن علم جميعها"[٣]؛ فالسياق كله يدور حول الأرض؛ لذا حسن تقديمها على السماء.

- تقديم السماوات على الأرض ، والظلمات على النور:

قال تعالى: (الْحَمْدُ للّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظّلُمَاتِ وَالنّورَ ثُمّ الّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ يَعْدِلُونَ) (الأنعام:١)، بدأت هذه السورة بحمده وشكره على ما أنعم به من خلق السماوات والأرض والظلمات والنور، ولعل هناك قيمة وراء تقديم السماوات على الأرض، والظلمات على النور تتجلى في كونه جاء بهذا التقديم، فقد يكون تقديمهما لتقدم خلقهما، يقول العز بن عبد السلام: "وقدّم السموات والظلمات في الذكر؛ لتقدم خلقهما على خلق الأرض والنور"[٤]؛

(١) تفسير الطبري٦/ ١٦٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٥١/٣.
(٤) تفسير القرآن، للعز بن عبد السلام ٤٢٨/١.

فخلق السموات بما فيها من أجرام علوية، وخلق الأرض بما فيها من أنواع المخلوقات.

- تقديم الخسف على الحاصب:

قوله تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) (الملك:١٦، ١٧)، جاءت هذه الآية بعد الامتنان عليهم بتذليل الأرض مخوفا إياهم بشدة بأسه وقسوة عقابه إذا لحقهم الغرور بما منحهم من نعم، ونسوا عقابه واستبعدوا حدوثه، وأصل الخسوف والكسوف "الخسوف للقمر، والكسوف للشمس، وقال بعضهم: الكسوف فيهما إذا زال بعض ضوئهما، والخسوف: إذا ذهب كله"[(١)]، وهو هنا بمعنى انشقاق الأرض وابتلاعها لمن عليها حتى لا تبقي منه شيء، "والحاصب: الريح ترمي بالحصباء قاله الفراء، والحصب: الرمي بالحصباء، وهي الحجارة الصغار"[(٢)]، ووجه تقديم التوعد بخسف الأرض على التوعد بإرسال الحاصب من السماء، " أنه لما تقدم ما اتصل به التوعد من قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) (الملك:١٥)؛ فحضر في النفوس عند ذلك وتقرر تذكرة هذه النعمة وجليل الامتنان بها شاهداً حاضراً للمتذكر، وعليها قراره حال تذكره وتنعمه بالتقلب فيها حين خطابه متصلاً غير منفصل، وملتصقاً غير متباعد، كان أنسب شيء لهذه في الموعظة تذكيره اتعاظاً بخسفها من تحته، حتى كأن ذلك الأمر جاء منه لا من خارج عنه"[(٣)]، فبدأ بالخسف تلويحا بسرعة العذاب وقرب موقعه منه مما يجعل النجاة منه أمرا

(١) المفردات، ص ٢٩٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٦١.
(٣) ملاك التأويل ٢/٤٧٩ .

مستحيلا. يقول الطاهر: "وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب؛ لأن الخسف من أحوال الأرض، والكلام على أحوالها أقرب هنا، فسلك شبه طريق النشر المعكوس، ولأن إرسال الحاصب عليهم جزاء على كفرهم بنعمة الله التي منها رزقهم في الأرض "[1].

- تقديم الجار والمجرور لأغراض جمة:

كثر تقديم الجار والمجرور في مواضع التعبير عن السماء والأرض، وأول ما يود البحث الإشارة إليه هو تقديم الجار والمجرور (لكم)، وجاء مقدما على الأرض ست مرات في الكتاب العزيز؛ في الآيات الآتية:

* قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَآءً) (البقرة:٢٢).

* وقوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا) (طه:٥٣).

* وقوله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) (غافر:٦٤).

* وقوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا) (الزخرف:١٠).

* وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولا) (الملك:١٥).

* وقوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا) (نوح:١٩).

وعن تقديهما يقول أبو السعود: "وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين وللتشويق إليه"[2]؛ فالغرض من

(١) التحرير والتنوير ٣٦/٢٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٦١/١، روح المعاني ١/ ١٩٠، البحر المديد ٧/ ٩٧.

التقديم تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر، كما أن في التقديم تأكيدا على اختصاص خلق الأرض بالناس لا بغيرهم، فمن أجلهم هم لا من أجل غيرهم جعلت على أحسن الأحوال؛ ففرشت وبسطت ومهدت وذللت وجعلت قرارا، كما أن المقصود الأول من هذه الآيات جميعها الامتنان، وفي تقديم (لكم) أيضا إشارة إلى أن جهة استفادة البشر أقدم الغايات وأولاها وأولها..[١].

ويقول صاحب الظلال: "إن كلمة (لكم) هنا ذات مدلول عميق وذات إيحاء كذلك عميق؛ إنها قاطعة في أن الله خلق هذا الإنسان لأمر عظيم؛ خلقه ليكون مستخلفاً في الأرض، مالكاً لما فيها، فاعلاً مؤثراً فيها"[٢]، ومثل هذه الآيات التي تقدمت فيها (لكم) على الأرض أو على السماء في سياق الخلق والتسخير يكون الغرض من هذا التقديم هو الامتنان.
ومثله قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة:٢٩)
وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ) (الحج:٦٥)

وقد تأتي "للتنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا صفة"[٣]، نحو: قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ) (البقرة:٣٦)، و (الأعراف:٢٤)؛ فتقديمها هنا أولى من تأخيرها؛ لأنها لو أخِّرت لأصبحت صفة، ولو أصبحت صفة، لذهب مراد الكلام إلى جعلها وصفا للمستقر لا غير، فقيمة تقديمها جعلت من المستقر حقا لا مجرد وصف.

(١) انظر/ إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص ٢٢٩.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٣.
(٣) خصائص التعبير القرآني ٢/٩٦.

وفي قوله تعالى: (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) (الأنفال:١١).

الاهتمام في الآية منصب على المؤمنين المدافعين عن رسالة الله تعالى ومنهجه في الأرض، وهم المخصوصون بنزول الماء، فلما كان الاعتناء بالمنزل عليه لا بالمنزل قدم الجار والمجرور؛ فتقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، في قوله: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)[1]، ويلاحظ في استعمال الجار المجرور(لكم) ورودها مع الأرض ولا تأتي مع السماء، في حين تأتي (عليكم) مع السماء دون الأرض.

وأكثر الآيات التي تقدم فيها الجار والمجرور –وهي تعد ظاهرة في القرآن الكريم– قوله: (لله ملك السماوات والأرض) ثماني مرات، وقوله: (له ملك السماوات والأرض) عشر مرات. نحو قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قدير) (آل عمران:١٨٩)، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّـهَ لَـهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّـهِ مِنْ وَلِـيٍّ وَلا نصِيرٍ) (البقرة:١٠٧).

وقدم الجار والمجرور (لله) و(له) وهما الخبر على (ملك السموات والأرض) وهو المبتدأ؛ لاختصاص الله تعالى به دون غيره؛ لأن ملك السموات والأرض أكبر شأنا، وأعظم أمرا، فإذا مُلكوا كان ملك دونهم أدنى وهو داخل في هذا

(١) انظر/ حدائق الروح ١٠/ ٣٦٥.

الملك؛ فملك السماوات والأرض مختص بكونه لله أي مقصور عليه ومنحصر فيه"[1].

وإخباره بملكية ذلك واختصاصه به يشير بوضوح إلى سيطرته الكاملة على ما يحدث فيها؛ لأن "الإخبار بأنها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنه عالم بها، ولام الملك أفادت الحصر فيكون التقديم مفيدا تأكيد الحصر، أو هو للاهتمام"[2]، وتأكيد الحصر هو الأولى.

ومثله قوله تعالى: (وَلِلّهِ غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ السّاعَةِ إِلاّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النحل:٧٧)

وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) (الأنبياء:٣٢).

"وإعراضهم لا يختص بآيات السماء، بل هم معرضون عن آيات الأرض والسماء؛ قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (يوسف:١٠٥). ولكن لما تقدم الكلام على السماء، خص آياتها بالذكر، فقال:(وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) فقدم الجار والمجرور للتعظيم"[3]؛ أي: إنهم معرضون رغم ظهور الآيات، فأفاد التقديم التعظيم، وحمل السامع إلى نبذ إعراضهم. وقال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) (الذاريات:٢١، ٢٢، ٢٣).

ففي هذه الآيات المتتاليات جاء التدليل على قدرة الله تعالى؛ فذكر اللّه تعالى بعض الأدلة على قدرته الدالة على وقوع الحشر، وهذه الآيات قد بشرت

(١) انظر/ درة التنزيل وغرة التأويل ص ٢١٤ ، البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، ص ٣٣٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٣٠.
(٣) معاني القرآن ٣/٩٣.

المتقين بألوان من البشارات، ثم لفتت عقول الناس إلى ما في الأرض، وإلى ما في أنفسهم، وإلى ما في السماء من عظات وعبر[١]. يقول الرازي: "وفي الآيات الثلاث ترتيب حسن؛ وذلك لأن الإنسان له أمور يحتاج إليها لا بد من سبقها حتى يوجد هو في نفسه، وأمور تقارنه في الوجود، وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها؛ فالأرض هي المكان وإليه يحتاج الإنسان ولا بد من سبقها فقال: وفي الأرض آيات، ثم في نفس الإنسان أمور من الأجسام والأعراض؛ فقال: وفي أنفسكم، ثم بقاؤه بالرزق فقال: وفي السماء رزقكم، ولولا السماء لما كان للناس البقاء"[٢]. ويظهر من هذه الآيات اعتماد أسلوب التقديم والتأخير في جميعها على نسق واحد بتقديم (في) على الأرض والنفس والسماء، "وتقديم الخبر في قوله: وفي الأرض؛ للاهتمام والتشويق إلى ذكر المبتدأ"[٣].

وفي ذكر الموقنين مع الأرض دليل على أنهم انتفعوا بالتصديق فصدّقوا بوقوع الحشر والبعث، فلا يؤمن بآيات الله تعالى إلا من آمن قلبه بما جاء به الله، أما المتكبر المعاند فإنه لا يعبأ بالآيات، قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف:١٠٥)، وقال تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (البقرة:١٩)، والتشبيه باستعمال الصيب يشير إلى شدة التخويف وكونه من السماء زيادة في الترهيب واكتملت صورة الفزع بكون هذا الصيب (فيه ظلمات) "المسوقة للتهويل؛ فتقديم (فيه) إشارة إلى أن خيال المصاب المدهوش والسامع

(١) انظر/ الوسيط للزحيلي ٣/ ٢٥٠٠، الوسيط لطنطاوي ١٤/ ١٨.
(٢) التفسير الكبير ١٧٢/٢٨.
(٣) التحرير والتنوير ٣٥٢/٢٦.

المستحضر خياله لتلك الحال يتوهم أن ظلمات الليالي الكثيرة أفرغت بتمامها في تلك الليلة"[١].

- تقديم المفعول على الفعل:

ومنه قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران: ٨٣). ينكر المولى تعالى عليهم فعلهم هذا ويستبعد أن يبيغى غير دينه سبحانه. وفي قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ)، وكان له من الحسن والمزية والفخامة، ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل: (أيبغون غير دين الله)، و (أتريدون غير دين الله ؟)؛ وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: "أيكون غير دين الله بمثابة أن يُبغى دينا ؟، و أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟، و أيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟، ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: (أأبغي غير دين الله دينا)؛ وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك[٢]، فقدم المفعول الذي هو (غير دين اللَّه) على فعله؛ "لأنه أهم من حيث إنّ الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل"[٣]، وقد زاد في توكيد معنى الاستسلام لله تعالى، وتقديم الجار والمجرور (له) على الفعل المتعلق به (أسلم)؛ لتخصيص الانقياد والاستسلام لله.

- تقديم فرش الأرض على بناء السماء:

قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا

(١) إشارات الإعجازفي مظان الإيجاز، ص ١٤٠.
(٢) انظر/ دلائل الإعجاز، ص١٢١، ١٢٢.
(٣) الكشاف ١/٣٨٠.

لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة:٢٢)، وفي تقديم الأرض أسباب كثير ة منها: أنه تعالى لما ذكر خلقهم ناسب أن يعقبه بذكر أول ما يحتاجونه بعده وهو المستقر، أو ليحصل العروج من الأدنى إلى الأعلى، أو لأن خلق الأرض متقدم على خلق السماء كما يدل عليه ظواهر كثير من الآيات، أو لأن الأرض لكونها مسكن النبيين ومنها خلقوا أفضل من السماء، وفي ذلك خلاف مشهور"، أو أنه قدم الأرض على السماء؛ لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء[١]؛ وكل هذه التعليلات وارد قبولها؛ لقربها من المعاني المرادة من سياق الآيات، أما تقديم الفرش على البناء؛ فذلك "لأن السقف والبنيان، فيما يعهد لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض، فبدأ بذكرها؛ إذ على متنها يوضع الأساس، وتستقر القواعد؛ إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعده"[٢]، كما أن لتقديم فرش الأرض قيمة ظهرت في العودة إليها بعد ذكر بناء السماء، وإنزال الماء منها إلى إخراج النبات الذي يحتاج إلى تلك البيئة حتى يعطي الرزق الوفير.

- تقديم الفجاج على السبل والعكس:

قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (الأنبياء:٣١)، وقال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سبُلًا فِجَاجًا) (نوح:١٩،٢٠) في الآيتين تذكير بنعم الله تعالى وامتنانه على خلقه؛ حيث مهد لهم الأرض وجعلها سبيلا لمعايشهم فأحسن إعدادها، وبين الآيتين طريقة في التقديم تجعل

(١) انظر/ روح المعاني ١/ ١٩٠، و/ التفسير الكبير ٢/ ٣٣٦.
(٢) البحر المحيط ١/ ١٦٤.

السؤال واقعا عن تقديم الفجاج في الأولى وتأخيرها في الثانية، والواضح أنه قدم الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخرها عنها في الآية الثانية "وذلك أن الفجّ في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها؛ فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه"[1]، بما يعني أن السر في التقديم والتأخير هو السياق؛ فلما اختلف السياق في الثانية عن الأولى بأن كان في الأولى يمتن علينا ربنا بأن جعل لنا في الأرض رواسي وهي الجبال قدم ما يلائمها وهي الفجاج التي تتخللها؛ لأن "الفج: المسلك بين الجبلين"[2]، ثم قدم السبل في الآية الثانية؛ لأن السياق يتحدث عن بسط الأرض وتذليلها فقدم السبل؛ ليناسب سياق السهولة والبساطة.

- تقديم الأنعام على الإنسان:

وقال تعالى:(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) (الفرقان: ٤٨،٤٩). تبين الآية حكمة الله تعالى في إرسال الرياح وإنزال الماء الطهور من السماء؛ ليحدث به إحياء البلدة الميتة، وإسقاء الأنعام والإنسان، وقد قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس، رغم تكريمه للناس؛ "لأن حياة الأرض هي سبب لحياة الأنعام والناس، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش

(١) التعبير القرآني ص٦٢.
(٢) فتح القدير ٥/ ٣٥٨.

والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس؛ لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم"[1].

وقد يكون تقديم البلدة الميتة من قبيل ذكر العام قبل الخاص؛ فالبلدة ميتة بمن فيها وبما فيها، وتقديم الأنعام على الأناسي؛ لأنها لا تذنب ذنبا واحدا فتُعاقب بحرمانها من السقي؛ فلولاها لانقطع الماء بذنوب العباد.

ويقول د.المطعني: "وقد وفق ابن الصائغ أيما توفيق في توجيه التقديم، وقريب منه قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (السجدة:٢٧)؛ فقد حمل التقديم في (أنعامهم) على (وأنفسهم)؛ حيث تقدم ذكر الزرع، وهو مرعى الأنعام، وقد جاء على الأصل في قوله تعالى: (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (عبس:٣٢)؛ لأن سياق الحديث فيه طعام الإنسان؛ حيث قال سبحانه: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) (عبس:٢٤)، ولأن الآية تقدم فيها كلمة (متاعا)، وهذا يقتضي تقديم مَن هو أكثر تذوقاً للمتاع وفهماً له، وهو الناس"[2].

- تقديم الخسف على الكسف:

تقدم الخسف على الكسف في القرآن الكريم، كما تقدم على العذاب والحاصب، وفي هذا يقول ابن الأثير: "اعلم أن صحة الترتيب في ذلك أن يذكر في الكلام معان مختلفة، فإذا عيد إليها بالذكر لتفسر قدم المقدم وأخر المؤخر، وهو الأحسن، إلا أنه قد ورد في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح ولم يراع فيه تقديم المقدم ولا تأخير المؤخر، كقوله تعالى:

(١) المثل السائر ٢/ ٤٣.
(٢) خصائص التعبير القرآني ١١٧/٢.

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سبأ:٩)، ولو قدم تفسير المقدم في هذه الآية وأخر تفسير المؤخر لقيل: إن يشأ يسقط عليهم كسفا من السماء أو يخسف بهم الأرض"[١].

وسر العدول هنا عن التزام الترتيب سرعة وقوع العذاب؛ فإنه لما قدم السماء على الأرض في البداية بدأ بالأقوى هولا، والأشد بطشا وفتكا، والأكبر جرما، وعندما أعاد ما يوافق كل واحدة منهما قدم الأقرب، فكان سياق الزجر أوقع.

ومثله تقديم الخسف على الحاصب في قوله تعالى: (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا) (الإسراء: ٦٨)، ولم يذكر الأرض أو السماء في هذه الآية، لكنه ذكرها في قوله: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) (الملك:١٦-١٧).

- تغيير ترتيب الجملة لغرض معين:

قال تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (الأنبياء:١٠٤)، والمعنى: نعيد أول خلق إعادة مثل بداءتنا له؛ أي: كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود[٢]؛ فأصل الجملة: نعيد الخلق كما بدأنا أول خلق يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب وعدا علينا، فقدم هنا الظرف فحول النظم فقدم الظرف بادئ ذي بدء للتشويق إلى متعلقه، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباق؛ إذ جعل ابتداء خلق جديد وهو

(١) المثل السائر٢/ ٢٩٣.
(٢) الدر المصون في علم الكتاب المكنون السمين الحلبي١٠/٣٤٠.

البعث مؤقتا بوقت نقض خلق قديم وهو طي السماء. وفي الآية تقديم آخر في قوله تعالى: (كما بدأنا أول خلق) وهو حال من الضمير المنصوب في (نعيده)؛ للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس فضل تمكن، وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث[1]. ففي تقديم هذه التراكيب إفادة التشويق والتعجيل والاهتمام، وكل ذلك حتى يصل الكلام إلى المقصد المراد منه، فلو لم يتغير تركيب الآية، وظهرت على النحو الذي كان أصلا لها لم تؤد الغرض البلاغي المراد منها في لفت الانتباه والتشويق وصارت الجملة خبرية محضة قد تؤدي خبرا ولكن لا تؤدي غرضا.

- تقديم المغفرة على الجنة :

قال تعالى: (سَابِقُوَاْ إِلَىَ مَغْفِرَةٍ مّن رّبّكُمْ وَجَنّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السّمَآءِ وَالأَرْضِ أُعِدّتْ لِلّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد:٢١). الآية في معرض الحض على فعل الخيرات وترك المنكرات، فبدأت بالأمر إلى التسابق لنيل رضوان الله تعالى، وقدم المغفرة على الجنة؛ لأنها سبيلها فلا دخول إلى الجنة دون رضوان من الله ومغفرة منه، كما أن المغفرة تكون في الدنيا أولا حيث يطلبها العبد، وفي الآخرة يرجو أن يكون في الجنة، وفي التقديم أيضا إشارة "لتقدم التخلية على التحلية"[2]، ومثل هذا التقديم في قوله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ) (آل عمران:١٣٣).

- تقديم علمه بأحوال الأرض على أحوال السماء:

(١) انظر/ التحرير والتنوير ١٧/ ١٥٨.
(٢) حدائق الروح ٥١٧/٢٨.

قال تعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) (سبأ:٢)، والآية في معرض الحديث عن قدرة الله تعالى وسعة علمه؛ فهو تعالى: (يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ) من الغيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، (وَما يَخْرُجُ مِنْها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، (وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها، (وَما يَعْرُجُ فِيها) كالملائكة وأعمال العباد، والأبخرة، والأدخنة[١]، "وقدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء؛ لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً"[٢]؛ فالتقديم للترتيب ولإظهار القدرة والإحاطة، وفي ذكر هذه الأمور جميعا إشارة إلى دقة علمه بما يدور فيها، وفي التقديم إشارة إلى ترقي علمه من الأقرب إليهم وهم لا يعلمون عنه شيئا إلى الأبعد عنهم وهو الأولى بجهلهم به. والسر وراء تقديم الرحمة على المغفرة في هذه الآية أن الفواصل الأولى كلها كان يتقدمها ما يشعر بالذنب والخطأ والتقصير؛ لذا كانت المغفرة أولا. ولكن هذه الآية لم يتقدم فيها شيء من هذا، وإنما كل الذي ذكر هو حمد الله الذي له ما في السماوات والأرض، ويعلم ما في باطن الأرض، وما يخرج منها، وداخلها وخارجها، وما ينزل من السماء، وما يصعد إليها. ففي هذا مصالح الناس الكثير، وهو لا يعدو أن يكون رحمة من الله تبارك وتعالى؛ لذلك قدمت الرحمة على المغفرة لمناسبة سياق الآية[٣].

ومثله قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (الحديد:٤)،

(١) انظر/ مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجيد ٢/ ٢٦٤.
(٢) السراج المنير٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر/ لغة القرآن، د. أحمد مختار عمر، ص١٨٣.

وختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(لما تقدم من الحديث عن خلقه وعلمه فهو الخالق ومن صفاته العلم بما يخلق؛ فجاءت الخاتمة لتؤكد على هذه الصفة. يتضح مما سبق دور التقديم والتأخير في مواضع التعبير عن السماء والأرض من خلال تقديم السماء على الأرض، وتقديم الأرض على السماء، كما يظهر تقديم كلمات في السياق على أخرى وتأخيرها لأغراض متعددة، ويكثر تقديم الجار والمجرور في تلك المواضع، وهو أيضا له قيمته التعبيرية.

المبحث الثاني

(الالتفات)

يرتبط الالتفات بأعلى درجات البلاغة؛ فهو المتمم لأركان الكلام البليغ وله قيمته التعبيرية المهمة في السياق إذا جاء في موضع يحتاجه السياق، وكثيرا ما يعقبه وينتج عنه فوائد جمة. فهو كما يقول العلوي: "من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها، والواسطة فى قلائدها وعقودها، وقد يلقب بشجاعة العربية، و هو العدول من أسلوب فى الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول"[١]، ويعزو الزمخشري قيمته التعبيرية إلى اهتمام العرب به في كلامهم ، وإلى دوره في دفع الملل عن السامع؛ بقوله: إنه يأتي في اللسان العربي معبرا عن عادة العرب و افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد[٢].

ويرى ابن الأثير: "أن العدول من صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهما، وأغمضها طريقا"[٣].

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٢/٧٢.

(٢) انظر/ الكشاف ١/١٤.

(٣) المثل السائر ٢/ ١٢.

فأسلوب الالتفات هو أحد المسالك التعبيرية أو الألوان البلاغية التي يشيع استخدامها في القرآن الكريم...وهو لا ينحصر في – كما حصره كثير من البلاغيين – في التحول من ضمير إلى ضمير. بل إن مفهومه ليتسع ليشمل كل تحول أو انكسار في نسق التعبير لا يتغير به جوهر المعنى أو(البنية العميقة له) على حد اصطلاح التحويليين، وقد عرف بعض البلاغيين هذا الفن بقولهم: نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى مطلقا[١].

وللالتفات قيمة في إشراك المتلقي للحدث إشراكا يجعله يُعمل فكره إعمالا واعيا للوصول إلى السر وراء التحول والتغير في البنية بدأ بها المبدع حديثه ولذلك فإن "الالتفات هو توقع مداخلة المتلقي في النص، هو حفز المتلقي للمبدع على الإبداع، وهو الباب الخلفي الذي دخل منه المتلقي باب الإبداع ليتحول النص إلى نصين، أولهما ما ود المبدع أن يقوله، والآخر، ما قاله المبدع ردا على أسئلة لما تطرح بعد..."[٢]

وسوف أتناول في الصفحات القادمة صور الالتفات التي جاءت في مواضع ذكر السماء والأرض، مبرزا تلك الخصائص الفنية التي تميزت بها؛ وقد جاءت على النحو الآتي:

أولا: <u>الالتفات في الصيغ:</u>

أ- الالتفات من المضارع إلى الماضي:

قال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) (الكهف:٤٧)، في هذه الآية يصور

(١) انظر/ الالتفات في البلاغة القرآنية، د.حسن طبل ص٥٥.
(٢) شجاعة العربية – الالتفات (منهجته وتطبيقه بلاغة ونقدا)، د. محمد أبو الفضل بدران، ص ٤٨٨.

الحق تبارك وتعالى أحد مشاهد يوم القيامة، وفيه تتشابك عدة صور هي تسيير الجبال، ورؤية الأرض بارزة، والحشر، إلا أنه استعمال في التسيير والرؤية لفظ المضارع، وفي الحشر لفظ الماضي، ويقول الزمخشري عن هذا العدول متسائلا: " فإن قلت: لم جيء بحشرناهم ماضياً بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك "[1].

فالمجيء بالماضي هنا بعد المضارع التفات يفيد معاينتهم لتلك الأمور الأخروية، وهو ما يشير إليه كلام أبي السعود في إشارته إلى إيثار صيغة الماضي بعد (نسير)، و(ترى) جاءت للدلالة على تحقق الحشر المتفرع على البعث الذي ينكره المنكرون وعليه يدور أمر الجزاء؛ فمعاينتهم لتلك الأهوال يشير بقوة إلى تحقق الحشر ووقوعه، وهو المرجو من الالتفات؛ لأن في قوله تعالى:(وحشرناهم) (وعرضوا) (ووضع الكتاب) مما وضع فيه الماضي موضع المستقبل لتحقق وقوعه[2].

ويرى صاحب الظلال أن هذا التحول "قد أضاف إلى المشهد نوعا من الحياة والتجسيم الذي أفاد بدوره في إيقاع الهول المرجو الإشارة إليه، فهذا الالتفات من الوصف إلى الخطاب يحيي المشهد ويجسمه، كأنما هو حاضر اللحظة، لا مستقبل في ضمير الغيب في يوم الحساب، وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه، والذل في الملامح"[3].

---

(١) الكشاف٢/ ٧٢٦، روح المعاني ٨/ ٢٧٣، البحر المديد ٣/ ٢٧٦، زاد المسير٥/ ١٥١.

(٢) انظر/ تفسير أبي السعود ٢٢٦/٥، روح المعاني ٨/ ٢٧٣، البحر المديد ٣/ ٢٧٦، البحر المحيط ٥/ ٨٩، اللباب٥٠٣/١٢.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٤.

فالالتفات هنا لمعاينة الأحداث، ولتحقيق وقوع الفعل، والإشارة إلى الماضي والمضارع والمستقبل لا يوجد إلا في عرف البشر؛ لنقص أعمارهم، وضيق عقولهم عن الإحاطة بهم، وفي إيثار الماضى والعدول إليه عامة دلالة "على مبالغة فى الثبوت والاستقرار"[١].

فقد يكون المجيء بالماضي بعد المضارع لتقدم الماضي في الفعل وتأخره في الذكر، أو لتحقق وقوعه؛ فلذلك عبر عنه بذلك، أو للمبالغة في الثبوت والاستقرار.

قال تعالى: (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاّ مَن شَآءَ اللّهُ وَكُلّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (النمل:٨٧). جاءت الآية في معرض الحديث عن أهوال القيامة ووقعها على من في السماء ومن في الأرض، وعبر بالماضي بقوله: (ففزع) بعد المضارع في قوله: (ينفخ)؛ وذلك لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السموات والأرض؛ لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به[٢].

"فصيغة الماضي كناية عن التحقق وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله: (ينفخ)"[٣]، وفائدته: "أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجادهِ؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجدِ، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها"[٤]. فهذه الأهوال لابد أن

---

(١) الطراز ٢/٧٥.

(٢) انظر/ الكشاف٣/ ٣٨٦، و/ اللباب٨/٢٧٢، و/ البحر المديد ٤/ ٢٢٢، و/ المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٢، و/ البحر المحيط ٨/ ٢٧٢، و/التفسير الكبير٢٤/ ٥٧٤، و/ روح البيان ٦/٣٧٥، و/ نظم الدرر ١٤/٢٢٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠/٤٦.

(٤) المثل السائر ١/١٥.

تحدث لإخبار الله تعالى عنها، وفائدة الالتفات هنا تقوية أسلوب التعبير وتأكيده في نفس السامع؛ حتى لا يكون عنده شك في حدوث النفخ أو الفزع أيضا، وحتى بعد معرفته به وبوقوعه، فإنه لا يدفع عن نفسه هذا الفزع، وفي ذلك تجسيد للحدث وتهويل للموقف.

ب- الالتفات من الماضي إلى المضارع:

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرْضِ ثُمّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىَ لأُوْلِي الألْبَابِ) (الزمر:٢١). الانتقال من الماضي في قوله:(أنزل) إلى المضارع في قوله: (يخرج)؛ لاستحضار الصورة البديعة في القدرة، وهي إخراج النبت المختلف الألوان والأصناف والخواص بسبب الماء المخالط للأرض[١]؛ فالفارق هنا ينصب على أداء الصيغتين على معنى الحدث؛ إذ إن المعنى مع الأولى – لماضوية الزمن فيهما – هو أمر مقطوع بحدوثه، أما الثانية فهو أمر آني يتجدد حدوثه بتجدد الزمن، ومن ثم فإن هذه الصيغة الأخيرة تفرد دون الأولى- كما أشار البلاغيون- بالقدرة على إثارة المعنى واستحضار صورته لدى السامع حتى كأنه يشاهدها[٢].

والمجيء بالفعل الماضي للتذكير بقدرته تعالى على إنزال الماء من السماء كما هو مشاهد من قديم، ثم أعقبه بالإخراج، وقد آثر المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار؛ لأن إخراج الزروع أمر حالي ومستقبلي في العموم، ولا يكون

(١) انظر/ تفسير أبي السعود ٢٥٠/٧ ، و/ روح المعاني ٤/ ٢٢٥ ، و/ البحر المديد ٦٧/٥، و/ روح البيان ٧/ ١٤٨، و/ تفسير النيسابوري ٥/ ٦٢٢.

(٢) انظر/ المثل السائر٢/ ١٦، أسلوب الالتفات، ص ٧٩.

الحديث عنه ماضيا إلا إذا قصد إخراج معين وزروع معينة، فقد دل في الجزء الأول من الآية –الإتيان بالماضي– على القدرة، وفي الثاني– الإتيان بالمضارع – على كمال القدرة.

قال تعالى: (حُنَفَآءَ للّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنّمَا خَرّ مِنَ السّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) (الحج:٣١). وانتقل هنا من الماضي في قوله: (خر) إلى المضارع في (تخطفه)؛ "إشعارا باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهدة المخاطب تعجيباً له"[1]، واستعمل الماضي (خر) لإرادته التعبير عن حدث معين وهو السقوط، أما إيثار المضارع؛ فلاستحضار قسوة الصورة وغلظتها؛ ليصل المعنى بكل أبعاده، وفيه إشارة إلى تجدد التخطف، فلن يكون على مرة واحدة. بل إنه سيستمر ويتعدد على فترات كثيرة؛ ليشعر بعذاب تكراره، وفي هذا ترويع للمشرك وإيلام لنفسه.

ج– الالتفات من المضارع إلى الأمر:

هذه الظاهرة قليلة في الكتاب العزيز وخاصة في مواضع التعبير عن السماء والأرض. قال تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبّكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ قَالَ اتّقُواْ اللّهَ إِن كُنْتُم مّؤْمِنِينَ) (المائدة:١١٢)، وقال تعالى: (قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّهُمّ رَبّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرّازِقِينَ) (المائدة:١١٤)، جاءت الآيات في سياق الحديث عن طلب الحوارين إنزال مائدة من السماء، فجاء في الآية الأولى الفعل المضارع، ثم أعقبه بذكر الفعل نفسه في الآية بعد التالية لهذه الآية، وجاء بالفعل فيها

(١) روح المعاني ٩/ ١٤٣.

على صيغة الأمر. والسر في إيثار المضارع في الأولى: أن الفعل أتي في سياق السؤال من بني إسرائيل، وهم وإن سألوا هذا السؤال فإنهم يستفسرون عن إمكان حدوث هذه المعجزة في الوقت الحاضر أو في المستقبل القريب، واستخدامهم للمضارع الدال على الحال والاستقبال يؤكد أنهم يريدون هذا الحدث في أقرب وقت ممكن.

أما إيثار الأمر في الآية الأخرى فهو ليس من مقيلهم. بل من قول عيسى –عليه السلام– والأمر هنا ليس على صيغته، وإنما غرضه الدعاء؛ فعيسى دعا ربه تعالى أن ينزل هذه المائدة مستخدما صيغة الإنزال التي استخدموها من قبل؛ استجابة لطلبهم.

وقد ذكر الدكتور حسن طبل فرقا بين (نزّل– وأنزل) يصلح مع هذا الموضع من جهة ذكر التضعيف وتركه؛ فقال في الفرق بينهما: أنَّ الأولى– بما تنضوي عليه بنيتها من تضعيف –تفيد معنى المبالغة، غير أن المبالغة فيها لا تدل على الكثرة بل على تأكيد معنى النزول؛ أي المبالغة في إثبات وقوعه، أما الصيغة الثانية (أنزل) فإنها تدل على مجرد النزول دون مبالغة أو تأكيد في إثباته[1]. فذكرهم للتضعيف يبرز إلحاحهم الشديد في إرادة تحقيق طلبهم، ومجيء المضارع للدلالة على حدوث الإنزال الآن مما يؤكد إلحاحهم أيضا، وفي طلب عيسى–عليه السلام– أدب في تقديم لفظ الجلالة المستعمل في النداء يعقبه ذكر الربوبية ونسبتها إليهم، ثم أتى بالأمر الذي يفيد التضرع والخضوع، ومراد عيسى عليه السلام الإنزال دون مبالغة في ذلك.

د– الالتفات من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم:

(١) انظر/ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص٥٨.

أوجه الاختلاف لكثير من التعبيرات، وإيثار صيغة على أخرى من خلال تفاعلها مع ما جاءت من أجله؛ فيأتي الاسم للدلالة على شيء لا يستطيع الفعل التعبير عنه بالدقة نفسها. ففائدة مجيء الاسم أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت، شيئا بعد شيء[1]. فالمعنى أن الفعل متى ذكر دل على التجدد، والاسم متى ورد دل على الثبوت؛ قال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتّقِينَ كَالْفُجّارِ) (ص:٢٨). الآية في معرض الحديث عن خلق السماوات والأرض فسبحانه تعالى لم يخلقهما باطلا. بل لحكمة يرجوها كأن يُعلم من خلقهما كمال قدرته وسعة سلطانه، ولا يمكن للجاهل بحكمة الله تعالى أن يسوي بين المؤمن والفاسد، أو بين المتقي والفاجر.وقد عبر هنا عن المؤمن بقوله:(الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، وعن الفاسد بقوله: (المفسدين في الأرض)، فأتى بالفعل في الأولى ثم عدل عنه إلى ذكر الاسم في الثانية.

يقول البقاعي معلقا على الآية: "وسر ما ذكر وما حذف أنه ذكر أدنى أسباب الإيمان تنبيهاً على شرفه، وأنه سبب السعادة وإن كان على أدنى الوجوه، وذكر أعلى أحوال الفساد، إشارة إلى أنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وذكر أعلى أحوال التقوى إيماء إلى أنه لا يوصف بها ويستحق جزاءها إلا الراسخ فيها؛ ترغيباً للمؤمن في أن يترقى إلى أوجها"[2]، وسر التعبير بالفعل الماضي "دلالته على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به"[3].

(١) انظر / دلائل الإعجاز ص ١٧٤.
(٢) نظم الدرر ١٦/ ٣٧٣، ٣٧٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٦.

فالإشارة إلى الإيمان بذكر الفعل إشارة إلى شيئين متقابلين؛ ففي الوقت الذي يؤدي فيه الماضي دلالته على الوقوع المقطوع به، إلا أنه يدل على درجة معينة قد تقل في مقابل ذكر الاسم منها، ولكن هذه الدرجة الدنيا هي أشرف من ذكر الاسم مع ما يقابلها؛ فالعدول إلى ذكر الاسم أفاد نوعا من الثبوت على الإفساد، وهو ما يجعله لا يستوي مع أقل درجات الإيمان. أضف إلى ذلك الجملة الفعلية لم تأت إلا لتعديد صفات المؤمنين، وهي الإيمان والعمل الصالح، وإيثار الفعل على الاسم لما في الفعل من دلالة التجدد والاستمرار، ومجيء الفعل ماضيا دليل على صدقهم ورسوخ إيمانهم؛ فلم يجرب عليهم كذبا مذ آمنوا، وفي إيثار الاسم دون الفعل في قوله: (المفسدين) لما في الإفساد من ثبوت على الباطل، وعدم تجدده والإبقاء عليه عقيدة ومنهجا لهؤلاء.

ثانيا: الالتفات في العدد:

قال تعالى: (ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) (فصلت:١١). تتحدث الآية عن بداية خلق الكون، وتظهر من خلاله استجابة كل المخلوقات له تعالى، وقد جاء الالتفات في قوله: (ائتيا) بصيغة المثنى، ثم عدل عنها في الجواب إلى صغة الجمع (طائعين). وقد ناقش الزمخشري الإتيان دون التطرق إلى مخالفة الجواب للسؤال في العدد فى قوله: "فالمعنى: ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف: ائتي يا أرض مدحوّة قراراً ومهاداً لأهلك، وائتي يا سماء مقببة سقفاً لهم"[(١)]؛ فالمراد من قوله (ائتيا)، ومن قوله

(١) الكشاف ٤/ ١٨٩.

(طائعين)؛ أي: ائتيا إلى الوجود والحصول، وهو كقوله: (كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة:١١٧)[١]. ويرى ابن عطية أنَّ السبب في التثنية أنه: "أراد الفرقتين المذكورتين، جعل السموات سماءً والأرضين أرضاً ... جعلها فرقتين، وعبر عنها بـ (ائْتِيا)"[٢]، أما أبو حيان فقال: وليس كما ذكر- يريد ابن عطية - لأنه لم يتقدم إلا ذكر الأرض مفردة والسماء مفردة؛ فلذلك حسن التعبير بالتثنية"[٣]؛ فالسبب عند ابن عطية هو جعلهما فرقتين في الأولى؛ لذا حسنت التثنية، وجوابهما بامتثال كل جزئياتهما لله جعلهما في موضع الجمع.

أما الدافع وراء التثنية عند أبي حيان هو ما تقدم من ذكرهما مفردتين كل على حدة في قوله تعالى: (فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ)؛ فالتثنية في الأولى خطابه للسماء والأرض بإفرادهما كل على حدة. وأما قوله سبحانه: (قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ) فكان وجه الكلام أن يكون طائعتين، أو طائعات ردا على معنى التأنيث؛ فالمراد به - واللّه أعلم- عند بعضهم: قالتا أتينا بمن فينا من الخلق طائعين؛ فكان (طائعين) وصفا للخلق المميزين، لا وصفا للسموات والأرض[٤]. فإيثار التذكير تغليبا للعاقل ، وذلك لأن المستجيب هنا كل ما في الكون من الخلق، أما إيثار الجمع فنتج عن امتثال السماوات والأراضين، وما تبعه في الآية التالية من ذكر عددهن بقوله: (فقضاهن سبع سموات)؛ ليوافق المعنى المعنى.

قال تعالى: (وَكَمْ مّن مّلَكٍ فِي السّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىَ) (النجم:٢٦)، ترد الآية ردا قاطعا على قريش في

(١) انظر/ التفسير الكبير ٢٧/ ٥٤٨.
(٢) المحرر الوجيز ٥/٧، البحر المحيط ٩/ ٢٩٠، اللباب١٧/ ١١١.
(٣) البحر المحيط ٩/ ٢٩٠ ، اللباب ١٧/ ١١١.
(٤) تلخيص البيان ٣٠١.

قولهم: الأوثان شفعاؤنا؛ كأنه يقول: هذه حال الملائكة الكرام، فكيف بأوثانكم[1]، "وجمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملَك باعتبار المعنى؛ أي وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئاً من الإغناء في وقت من الأوقات(إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله) لهم في الشفاعة"[2].

يتضح من كلام الألوسي أن سبب الجمع في الآية الحمل على المعنى ، ولأن (كم) لفظها مفرد ومعناها جمع، وفي سر الإتيان بالجمع في قوله: شفاعتهم دون شفاعته " وهو أنه تعالى لما قال: (لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا) (النجم:٢٦) يعني شفاعة الكل، ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة؛ كل واحد لا تغني شفاعته، فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغني إذا جمعت"[3].

والسر في العدول عن الإفراد إلى الجمع، والمجيء بـ (كم) للتكثير، واختيار الملك دون غيره؛ لشرف منزلته، وذكر السماوات للتعظيم " كل ذلك لبيان فساد قولهم: إن الأصنام يشفعون؛ أي كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلته، فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها، وهم في أعلى السموات، ولا تقبل شفاعة الملائكة، فكيف تقبل شفاعة الجمادات "[4].

وقد أفادت (كم) التكثير في الآية، وفي إفراد (ملك) إشارة لبيان الجنس في مقابل الأوثان التي أجلوها وأكبروها، وفي العدول إلى الجمع فائدة لطيفة ترمي إلى عدم تشتيت الذهن، وإعمال الفكر فيما لا يفيد من تفكير في قدرة الملائكة على الشفاعة منفردين أو مجتمعين.

---

(١) انظر/ المحرر الوجيز ٥/ ٢٠٢.
(٢) روح المعاني ١٤/ ٥٨.
(٣) التفسير الكبير ٢٨/ ٢٥٥، وانظر/ البحر المحيط ١٠/ ١٩.
(٤) السابق ٢٨/ ٢٥٥.

ثالثا: الالتفات في الضمائر:

أ- الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (الرعد:٤١)، والالتفات في هذه الآية من التكلم في قوله: (نأتي) إلى الغيبة في قوله: (والله يحكم) له قيمته التعبيرية؛ ففي "بناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى، وهي جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها؛ فإنه لما أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة المشوبة بالتحذير كان لا بد أن يتوجه إليهم بالخطاب؛ ليريهم مكان القوة والعظمة لديه، فعاد إلى تصوير الفخامة والمهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة التي هي السبب في إتيان الأرض وانتقاص أطرافها"[1]. ترى في ربط التكلم بإتيان الأرض؛ لإظهار قدرته وعظمته وثنائه على نفسه بما هو أهله، والالتفات إلى الغيبة؛ لإظهار عدله الذي شهدت به جميع الكائنات، وإليه يحتكم ولا يستطيع دفع حكمه أحد من خلقه. وفي هذا إشارة أخرى أفادها التكلم في الأولى، وهى ما يراد للسامع الوعي به بأنه القادر على التغيير وهو الأحق بالعبادة، وفي العدول نوع من الخصوصية والتفرد؛ فالحكم لله تعالى لا لغيره، فلما احتاج المقام إلى الإظهار بالغيبة لتقوية الكلام وإظهار التفرد في الحكم وتأكيده جاء بها.

قال تعالى: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىَ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً) (الإسراء:٥٥)، وفي الالتفات من التكلم في

(١) روح المعاني ٧/ ١٦٤.، و انظر/ إعراب القرآن وبيانه ٥/ ١٣٦.

قوله: (وربك) إلى الغيبة، في قوله: (فضلنا) طمأنة لنفس النبي صلى الله عليه وسلم بأن "علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم. بل علمه متعلق بجميع الموجودات، وبما يليق بكل منها وبذلك حصل التمايز والتفاضل، وفي قوله: (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) فيه رد على أهل مكة في إنكارهم أن يكون يتيم أبي طالب مفضلاً على الخلائق ونبياً دون صناديد قريش وأكابرهم"(١).

ففي الأولى خاطب النبي أولا وإيثار التكلم هنا؛ لأنه استعمل مع الخبر الربوبية وهي أقرب الدرجات إلى النفس، وفي استعمال لفظ (وربك) نوع من الخصوصية، وفيه إشارة إلى حسن اختياره له بأن ميزه عن خلقه جميعا بالرسالة؛ لأنه تعالى أعلم بكل من في السماوات والأرض، فلا يصلح لها إلا أنت، ويرى البحث في هذه الخصوصية كثيرا من الشد على يده صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الصبر على ما يقولون.

أما الثانية فاستخدم فيه ضمير الغيبة وفيه هدفان: الأول: أن الله تعالى هو الموكل لا غيره باختيار الأنبياء والتفضيل كما هو واضح من تقديم العلم في بدية الآية، والثاني: أنه تعالى خاطب أهل مكة، وهم من يفضلون هذا على ذاك، وهم من قالوا: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف: ٣١)؛ فالله تعالى وحده القادر على التفضيل حتى من بين الأنبياء أنفسهم.

ب- الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

---

(١) تفسير النيسابوري ٤/ ٣٥٩.

قال تعالى: (الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مّن نّبَاتٍ شَتّىَ) (طه:٥٣). يعدد الحق تبارك وتعالى نعمه على الناس عامة، وعلى بني إسرائيل خاصة؛ فالتفت في هذه الآية من الغيبة في قوله تعالى: (جعل) و (أنزل) إلى التكلم في قوله تعالى: (فأخرجنا)؛ "للافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء عن إرادته؛ ومثله قوله تعالى: (وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَىْء) (الأنعام:٩٩)، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا) (فاطر:٢٧)، وقوله تعالى: (أَمَّنْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مّنَ السماء مآء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) (النمل:٦٠)، وفيه تخصيص أيضاً بأنا نحن نقدر على مثل"[١]. والفائدة من الالتفات "التنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة"[٢]، والسر في الالتفات هنا أنه لما عدد نعمه عليهم من قدرته على صنع هذه الأشياء، عدل إلى التكلم المفيد لتدخل قدرته تعالى في الإخراج، فلا تكفي الإعدادات وحدها، ولكنه تعالى موجود في كل فعل، فلو توافرت الأسباب ومشيئته غير ذلك لوافق الأمر مشيئته سبحانه.

قال تعالى: (رّبّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبّ الْمَشَارِقِ إِنّا زَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) (الصافات:٥،٦)، في الآيتين إشارة إلى هيمنته تعالى على كل شيء في الكون، فهو تعالى رب كل شيء، وفي الالتفات من الغيبة، في قوله: (رّبّ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ...) إلى التكلم، في قوله: (إِنّا زَيّنّا السّمَآءَ

(١) الكشاف٣/ ٦٨ ، و/ تفسير النيسابوري ٤/ ٥٥٤.
(٢) البحر المديد ٣/ ٣٩٤ ، و /إعراب القرآن وبيانه ٢٠٢/٦.

الدّنْيَا)؛ "لإظهار العظمة تنبيهاً على أن فعلهم فعل من ينكر ما للنجوم من الزينة وما تدل عليه من عظمته سبحانه وتعالى، وفخم التعبير عن الزينة بتضعيف الفعل لمثل ذلك: (إنا زينا)؛ أي بعظمتنا التي لا تدانى"[١]، وفي العدول إخبار "عن قدرته من تزيين السماء بالكواكب وانتظم في ذلك التزيين أن جعلها (حفظاً)"[٢].

آثر الغيبة حين الحديث عن صفاته أولا؛ لأن السماوات والكون يعلم الجميع خلقهم وخالقهم، وإيثار التكلم في الثانية؛ لتأكيد القدرة ونسبة الجمال إليه، وفيه ثناء مباشر على نفسه تعالى؛ فالتزيين والحفظ منه سبحانه، كما أن الزينة والحفظ هي من أوائل الاهتمامات لدى الإنسان بعد الخلق؛ ففي قوله: (زينا) على إضافته إلى الفاعل؛ لأن النسبة مجازية ولأن التزيين فعله تعالى"[٣].

قال تعالى: (وَالّذِي نَزّلَ مِنَ السّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الزخرف:١١)، وفي الآية التفات من الغيبة في قوله: (نَزّلَ مِنَ السّمَآءِ) إلى التكلم، في قوله: (فَأَنشَرْنَا)؛ "لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره"[٤]، ورأى النسفي أن هذا العدول جاء "لعلم المخاطب بالمراد"[٥]، وفي الانتقال أيضا تنوع في الأسلوب؛ لإيصال المراد بتسجيل المنة عليهم، والمزاوجة بين الصورة والالتفات مزاوجة رائعة أبرزت مكنون الآية، وسجلت الترييخ الذي يلحقهم إن هم أعرضوا. أضف إلى ذلك أن العدول يؤكد حرصه تعالى على إحياء البلاد الميتة؛ لتكون عونا للإنسان في

(١) نظم الدرر ١٦/ ١٩٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦٥.
(٣) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ١٦/ ٢١٩.
(٤) تفسير أبي السعود ٨/٤١، و / روح المعاني ١٣/ ٦٧، و / البحر المديد ٥/ ٢٣٦ ، و / روح البيان ٨/ ٣٥٤.
(٥) تفسير النسفي ٤/ ٩٢.

القدرة على الاستجابة لتكليفاته، كما أن فيها إشارة إلى اختصاصه وحده ببعثهم وإخراجهم كما يحدث مع إحياء الموات من الأرض.

ج- الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: (أَلآ إِنّ للّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمُ) (النور:٦٤)، تبين الآية إحاطة علمه تعالى بما يدور في السماوات والأرض؛ لملكيته تعالى لهما ، والالتفات في الآية من الخطاب في قوله: (يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ) إلى الغيبة، في قوله: (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ)، والخطاب في الآية إما أن يكون عاما للجميع في الموضعين، أو خاصا بالمنافقين في الموضعين حتى يتحقق الالتفات. يقول الخطيب: " أي: ويعلم يوم (يرجعون إليه) فيه التفات عن الخطاب؛ أي: متى تكون، أو ويوم يرجع المنافقون إليه للجزاء"[١]. ويسمي القرطبي هذا العدول خطاب التلوين؛ ففي قوله: (ويوم يرجعون إليه) "بعد ما كان في خطاب رجع في خبر، وهذا يقال له: خطاب التلوين"[٢]، وفي العدول من الخطاب إلى الغيبة إشعارٌ بتأكيد الرجوع إليه؛ يقول أبو السعود: "وفيه إشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا"[٣].

ويؤكد الألوسي على ذلك بقوله: " وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم؛ لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك، وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده"[٤].

---

(١) السراج المنير ٢ / ٧١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٢٣.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٩.
(٤) روح المعاني ٩/ ٤١٧.

قال تعالى: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوَاْ أَرْحَامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّـهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ) (محمد:٢٢،٢٣)، التفت البيان القرآني هنا من الخطاب في قوله: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ) إلى الغيبة، في قوله: (أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ)؛ ليكون أبلغ في التوكيد، ولتأكيد التوبيخ، وتشديد التقريع، وتسجيل ذلك عليهم مشافهة وخطابا[١]، وفي العدول بذكر الغيبة في قوله: (أولئك) "إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات إيذاناً بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن درجة الخطاب ولو على جهة التوبيخ وحكاية أقوالهم الفظيعة لغيرهم"[٢]؛ فالانتقال هنا من الخطاب إلى الغيبة زيادة في التوبيخ والتقريع والتحقير لِشأنهم بعدما فعلوا ما فعلوا من تقطيع للأرحام، فأسقطوا من الخطاب إلى الغيبة استنكارا لأفعالهم.

د- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (الذاريات:٢٠،٢١)، التفت من الغيبة في قوله: (لِلْمُوقِنِينَ) إلى الخطاب في قوله: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ)؛ فانتقل من العام إلى الخاص، ومن ذكر كل الأرض التي هي آية للجميع إلى النفس، وهي أخص أجزاء الإنسان؛ فضربَ المثلَ هنا للتقريب وإقامة الحجة عليهم[٣].

فلما كان الكلام على العموم عزاه إلى الغيبة؛ لأن الغيبة في العموم أقوى، ولما أراد الحديث عن القدرة على خلق النفس البشرية وجهه إلى الخطاب؛ ليكون التأثير في المخاطب أبلغ، وعن السر في العدول إلى الخطاب، يقول

(١) انظر/ السابق ٩/ ٤١٧، و/ إعراب القرآن وبيانه ٩/ ٢٢٠.
(٢) روح المعاني ١٣/ ٢٢٥، و/ البحر المديد ٥/ ٣٧٢، و/ روح البيان ٨/ ٥١٧.
(٣) انظر/ تفسير الشعراوي ٢/ ٨٩١.

الرازي: "وإنما أتى بصيغة الخطاب؛ لأنها أظهر لكون علم الإنسان بما في نفسه أتم"[1]؛ "فالقرآن إذ يخاطب السامعين الأولين ويلفت نظرهم إلى ما في أنفسهم من عجائب إنما يخاطبهم بما هو من مشاهداتهم ومدركاتهم، وهذا ما يفسر معنى الإنكار والتنديد في السؤال أَفَلا تُبْصِرُونَ"[2].

وذكر الموقنين أولا ثم ذكر أنفسهم ثانيا حث في الأول على قيمة التفكر، فلا يعقله إلا هؤلاء، ويدعدهم بطريق التعريض إلى الإيقان بأن ينظروا في أنفسهم، فالعلامات واضحة لا تحتاج إلى برهان، فإن كنتم من الموقنين فننظروا في الكون، وإن كنتم غير ذلك فابدءوا بأنفسكم ففيها من العبر ما فيها لكل عاقل.

هـ- الالتفات من الإضمار إلى الإظهار:

قال تعالى: (قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنشِىءُ النّشْأَةَ الاَخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت:٢٠)، تدعو الآية إلى النظر في خلقه تعالى، والتفكر في قدرته على إعادتهم كما خلقهم، وفيها التفات من الإضمار في قوله: (بَدَأَ الْخَلْقَ) إلى الإظهار في قوله: (ثُمّ اللّهُ يُنشِىءُ)؛ لأن "الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قرّرهم في الإبداء بأنه من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي وجب أن لا تعجزه الإعادة، فكأنه قال:

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ١٧٢.
(٢) التفسير الحديث ٣٨/٥ ، ٣٩.

ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ"[١].

وقال الطاهر معقبا على الكلام السابق: "يريد أن العدول عن الإضمار إلى الاسم الظاهر لتسجيل وقوع هذا الإنشاء الثاني، فتكون الجملة مستقلة؛ حتى تكون عنوان اعتقاد بمنزلة المثل؛ لأن في اسم الجلالة إحضارا لجميع الصفات الذاتية التي بها التكوين، وليفيد وقوع المسند إليه مخبرا عنه بمسند فعلي معنى التقوي"[٢]، ويرى أبو السعود في الإظهار" إبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد "[٣]. فالعناية بالإعادة هي التي دعت إلى العدول عنده، في حين يرى أبو حيان أن تعظيم أمر النشأة هو ما دعا إلى ذلك ، حيث يقول: "ودل إبرازه هنا على تفخيم النشأة الآخرة وتعظيم أمرها وتقرير وجودها، إذ كان نزاع الكفار فيها، فكأنه قيل: ثم ذلك الذي بدأ الخلق هو الذي (ينشىء النشأة الآخرة)، فكان التصريح باسمه أفخم في إسناد النشأة إليه"[٤].

في حين يرى الرازي أنه "أظهر اسمه حتى يفهم به صفات كماله ونعوت جلاله، فيقطع بجواز الإعادة، فقال: (الله) مظهراً ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ إرادته، فيعترف بوقوع بدئه وجواز إعادته" [٥]، وكل هذه الرؤى تتكامل لتشير إلى أن السر في الإظهار هو تفخيم شأن هذا الأمر وصعوبته، ولكن الله وحده هو القادر على الإعادة كما

(١) تفسير النسفي٣/ ٢٠٤، و/ الكشاف٣/ ٤٤٩ ، و/ البحر المديد ٤/ ٢٩٤.
(٢) التحرير والتنوير٢٠/ ٢٣١.
(٣) تفسير أبي السعود٧/ ٣٥، روح المعاني ١٠/ ٣٥٢.
(٤) البحر المحيط ٨ /٣٤٩، وانظر/ تفسير النيسابوري ٥/ ٣٨٠.
(٥) التفسير الكبير ٢٥/ ٤١، السراج المنير ٣/ ١٢٣.

بدأها، وجاء الالتفات في الآية لإحضار أذهانهم إليه كما سيحضر أجسادهم عند النشأة الآخرة.

قال تعالى: (لّهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) (الحديد:٥)، والتفات من الإضمار في قوله تعالى: (له ملك) إلى الإظهار في قوله: (وإلى الله)؛" لتكون الجملة مستقلة بما دلت عليه، فتكون كالمثل صالحة للتسيير"[١]، كما أفاد التعبير به مظهرا لإرادة العموم، يقول البقاعي: "وعبرً بالاسم الأعظم الجامع لئلا يظن الخصوص بأمور ما تقدم"[٢]، فأتي به في فاصلة الآية مظهرا؛ لتكون كالمثل وليعرف بها العموم، وقد جاء هذا التركيب (وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) ست مرات في القرآن الكريم، وفي جميعها كان تعقيبا على كلام سبقه.

رابعا: الالتفات فى المعجم:

قال تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبّكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ قَالَ اتّقُواْ اللّهَ إِن كُنْتُم مّؤْمِنِينَ) (المائدة:١١٢)، التفت في هذا الموضع من الربوبية في قوله: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبّكَ) إلى الألوهية في قوله: (قَالَ اتّقُواْ اللّهَ)؛ ردا على غلطهم، واستعظاما لقولهم[٣]، وجاء رد عيسى – عليه السلام – من جهة استعظام مقالتهم، ولعدم توفيقهم فيما قالوا، وإن كان من المفسرين من رآى أن مقالتهم هذه لا تعنى إنكارهم لقدرة الله تعالى بقدر ما هي حث على الاستجابة لهم، فكان رده عليهم

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٦٦.
(٢) نظم الدرر ١٩/٢٦١.
(٣) انظر/ تفسير الطبري ١١/ ٢٢٠ ، تفسير البغوي ٣/ ١١٧.

زاجرا داعيا لهم إلى التقوى ، من قبيل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (المائدة:١٠١).
كما ناسب ذكر التقوى لفظ الجلالة؛ لارتباطه به في كثير من المواضع، فقد ورد في القرآن الكريم في تسع وثلاثين موضعا، في حين جاء قوله: (اتقوا ربكم) في أربعة مواضع، والسر في العدول إلى الألوهية في الآية تربية المهابة في نفوس السائلين ، وحثهم على حسن الأدب مع الله تعالى.

قال تعالى: (الْحَمْدُ للّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظّلُمَاتِ وَالنّورَ ثُمّ الّـذِينَ كَفَـرُواْ بِـرَبّهِمْ يَعْـدِلُونَ) (الأنعام:١)، في الآية التفاتان: الأول: ذكر الألوهية أول الآية في قوله: (الحمد لله)، ثم العدول في نهايتها إلى الربوبية في قوله: (بِرَبّهِمْ يَعْدِلُونَ)؛ لإظهار اللطف بهم والإشعار بعلة الحكم"[١]، وفي إيثار ربهم بدلا من الله؛ يقول البقاعي: "وزاد الأمر تقبيحاً عليهم بإبدال ما كان الأصل في الكلام من الضمير بقوله: (بربهم)؛ أي: المحسن إليهم الذي لم يروا إحساناً إلا منه"[٢]؛ حيث عدل هنا إلى ما فيه الإحسان إليهم رغم ما أنعم به عليهم من نعم، وذلك "للدلالة على كمال العناية"[٣].

أما الالتفات الثاني: هو في ذكر (الخلق) مع السماوات والأرض، ثم العدول إلى لفظ (الجعل) مع الظلمات والنور؛ "لأن الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان آخر"[٤]، فإيثار الخلق مع السماوات والأرض؛ لعظم خلقهما ودقة تكوينهما واختلاف أحوالهما، أما الظلمة والنور فلهما خصوصية

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ١٤٠.
(٢) نظم الدرر ٤/٧.
(٣) إعراب القرآن وبيانه ٣/ ٦٢، ٦٣.
(٤) السابق ٣/ ٦٠.

أخرى من حيث هيئتهما وأحوالهما؛ فعدل إلى الجعل معهما؛ ليعطي كل خلق ما يناسبه.

قال تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقّ الأَرْضُ وَتَخِرّ الْجِبَالُ هَدّاً) (مريم:٩٠)، الآية إنكار على من نسب للرحمن تعالى ولدا؛ فالكون كله ساخط لمقالتهم التي لا يقبلها أي كائن، فتكاد تحدث هذه المقالة اضطرابا في السماوات والأرض والجبال وغيرها؛ لبشاعتها وكذبها. وفي الآية التفات في العدول عن لفظ التفطر المستعمل مع السماء إلى التشقق الذي استعمل مع الأرض، والأصل أن " الفطر من عوارض الجسم الصلب، فإنه يقال: إنا مفطور ولا يقال: ثوب مفطور. بل مشقوق، ففي نسبة التفطر إلى السموات والانشقاق إلى الأرض؛ إشارة إلى أن السماء أصلب من الأرض"[١].

فالفارق بينهما أن " التفطر يعني التشقق في أجزاء مختلفة متعددة متكررة، أما انشق فهو مما يحتاج إلى معالجة، ومما يصعب فطره"[٢]، ويرى أبو حيان أن الفطر هو السقوط، والشق هو الخسف، يقول: " وقيل: (تكاد السموات يتفطرن)؛ أي: تسقط عليهم (وتنشق الأرض)؛ أي: تخسف بهم"[٣].
في حين يرى الشوكاني أنهما بمعنى واحد، ويرجع التكرار إلى التأكيد، يقول: "الانفطار والتفطر التشقق، وكرر الفعل للتأكيد؛ لأن تتفطرن وتنشق معناهما واحد"[٤]، وإليه ذهب ابن عاشور، إلا أن سبب الجمع بينهما عنده إنما هو "تفنن في استعمال المترادف لدفع ثقل تكرير اللفظ"[٥].

---

(١) روح المعاني ٨/ ٤٥٤.
(٢) انظر/ زهرة التفاسير ٩/ ٢٩٩.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠١.
(٤) فتح القدير ٣/ ٤١٥.
(٥) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧٠.

والواضح أن هناك قربا كبيرا بين اللفظين مما يصعب الفصل الدقيق بينهما، ولكن لابد أن يكون لكل لفظ خصوصيته التي يتمايز بها عن الآخر؛ فقد تكون في هذا اللفظ زيادة عن الآخر ولو كانت في غاية الدقة، والمهم هنا أن الفطر تعلق بالسماء أكثر من تعلق الانشقاق بها؛ لأن الفطر من عوارض الأجسام الصلبة، وفيه إشارة إلى أن السماء أصلب من الأرض، ولأن الفطر هو الأصل في القوة بالنسبة للسماء يليه الشق، فاختار الأقوى للدلالة على عظم الهول الواقع عليها من جراء تلك المقالة، وفي الآية تأكيد على أن الانفطار يسبق الانشقاق حتى في اختياره هنا وترتيبه هذا الترتيب البديع، والواضح أن السماء تنفطر وتنشق، أما الأرض فإنها لا يحدث فيها انفطار. بل يحدث فيها انشقاق وهذا ما وضحته عموم الآيات، ولما كانت السماء أعظم جاءت متقدمة على الأرض، للمبالغة في الهول. ولحقها الانفطار وهو هول من الأهوال، وجاء الانفطار مع السماء؛ لأنه أول درجات هولها، كما أن الانشقاق هو أول أهوال الأرض.

خامسا: الالتفات في الأدوات: التنويع في أداة:

قال تعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىَ هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ) (سبأ:٢٤)، توضح الآية الخلاف الشديد بين الحق والباطل، وتبرز العدول والتنويع بين الأدوات؛ فهم يقولون لهم: إننا لسنا على حال واحدة؛ فأحدنا مهتد والآخر ضال، والفصل بيننا من اتضاح حجتنا وإقامة الحجة عليكم. وقد التفت هنا من قوله: (إنا) إلى قوله: (إياكم)، فلم يقل: (أنتم)، وفي ذلك

"تلطف في الدعوة والمحاورة"[1]، ويقول صاحب الهداية: " لو عطفت على الموضع فقلت: وأنتم لكان لعلى هدى خبراً للأول لا غير، وقيل: المعنى: وإنا لعلى هدى وإياكم لفي ضلال مبين"[2]. ولكن المراد من هذا الالتفات نسبة الهدى إلى (إنَّا)، فيكون الكلام (إنَّا لعلى هدى)، ونسبة الضلال إلى (إياكم)، فيكون الكلام (وإياكم لفي ضلال مبين)، ولن تستطيعوا أنتم الفصل في ذلك بنسبة الخبر إلى صاحبه نسبة صحيحة؛ فعدل إلى هذا في أسلوب رقيق يدعو إلى ما يريد في حسن وأدب.

سادسا: الالتفات في البناء النحوي: بالتحول في الإسناد:

قال تعالى: (وَأَنّا لاَ نَدْرِيَ أَشَرّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبّهُمْ رَشَداً) (الجن:١٠)، تأتي الآية في معرض جهل الجن بما يحدث من تغيرات في الكون؛ فقد كانوا في السابق يسترقوا السمع أما اليوم فهم عاجزون عنه، ولذلك يشيرون إلى قصور إدراكهم عن تحديد ما يحدث هل هو من الخير أم الشر الواقع على أهل الأرض، والالتفات هنا من تحول الإسناد؛ فيسند القول في الأولى إلى المبني للمجهول في قولهم: (أُريد)، ثم يعدل عنه في الثانية إلى البناء للمعلوم في قولهم: (أراد بهم ربهم)؛ جريا على واجب الأدب مع الله تعالى، وحسن رعايته مع الخالق؛ حيث نسبو الخير إلى الله تعالى دون الشر، فجمعوا بين حسن الاعتقاد والأدب[3].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، تفسير الثعالبي٤/ ٣٧٤.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ٥٩٢٦/٩.
(٣) انظر / روح المعاني ١٥/ ٩٨، و/ روح البيان ١٠/ ١٩٤، و/ التحرير والتنوير ٢٣١/٢٩، و/ إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ٢٤٤، و/ حدائق الروح والريحان٣٣٤/٣٠.

وقد أحدث الالتفات قيمة بلاغية عظيمة جاءت في أسلوب بديع؛ فالله تعالى يفعل الخير والشر، ولكن العدول عن نسبة الشر إليه سبحانه تأدبا معه، وإخفاء ما يعلمه السامع علما جيدا حتى لا يحدث حشو في المعنى بما لا يفيد، أما البناء للمعلوم فقد أفاد تأكيد إرادة الخير منه على الدوام.